

أحمد عصام الدين

أرض الغربان

رواية



أرض الغربان
رواية

احمد عصام الدين.

أرض الغربان : رواية /احمد عصام الدين .

القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2022.

168 صفحة، 20 سم.

تدمك : 978-977-820-111-6

1- القصص العربية

أ- العنوان : 813

رقم الإيداع : 28069 / 2021

الطبعة الأولى : يناير 2022.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

4 ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 - 01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى الناشرين.

©جميع الحقوق محفوظة، وأيُّ اقتباسٍ أو إعادة طبع أو نشر في أي صورةٍ كانت ورقيةً أو إلكترونيةً أو بآيةٍ وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

أرض الغربان
أحمد عصام الدين
رواية



هذه الأوراق – سواء عثرتَ عليها أو عثرتَ عليك – هي رسالة للتأهين في زحام الأيام، الباحثين عن أحلامٍ بعيدة، والحالمين بعالمٍ مختلفٍ عن عالمهم.

«تلقي شباكك في البحر، وتنتظر. يتوقف جسدك عن الحركة، ولا يتوقف عقلك عن التفكير. تتوقع أن تلتقط الشباك كنزاً، تحلم، تتخيل، تتفاعل، وتبتهج. وتعود شباكك بزجاجة بها أوراق صفراء ظلت حبيسةً داخلها لأيام، وربما لأعوام. كافحت أمواجاً، وصارعت رياحاً، وهربت من أفواه حيتان هائلة؛ حتى وصلت إليك. تنظر للزجاجة باشمئزاز، تدرك أنك قد خلقت آمالاً زائفةً، وأن اللوحات التي رسمها خيالك ليس لها وجود في واقعٍ لم يتقن فنَّ الرسم أبداً. تدسّ أصابعك في فوهة الزجاجة، تخرج الأوراق، تسألها:

- لماذا - دوناً عن سكان العالم - علقْتِ بشباكي أنا؟

تجيبك الأوراق:

- لأن القدر قد كتب لك أن تقرأني قبل أن يتعلم من كتبني كيف يكتب.».

جدِّي كان يقول: «الذاكرة يا فارس سحابة عنيدة، يصيبها الجفاف إذا نظرت إليها، وإذا طلبت منها الهدوء؛ تمطر الذكريات فوق رأسك.».

عصرتُ عقلي بحثاً عن بداية تليق بقصّتي، أعادتني ذاكرتي ليومٍ استيقظتُ فيه من كابوسٍ مفرعٍ على صوتٍ أكثر منه فزعاً، وعندما التقتُ ورائي؛ رأيتُ غراباً.

كان مستنداً إلى حافة النافذة المطلّة على الشاطئ، سواده كليلٍ حالِك، ونظراته جعلت قلبي يرتجف من شدة الخوف. وجهه كان مريضاً شاحباً، والشعاع المنبعث من عينيّه زرع بداخلي شعوراً غريباً؛ وكأنني أعرف هذا الغراب، أو أنه يعرفني حق المعرفة.

أصدر الغراب نعيماً صاخباً ثم رأيتُه يحلّق بعيداً عن نافذتي التي كان ينفذ من خلال فتحاتها الضيقة ضوءً واهناً وخليطاً من الروائح المختلفة. نهضت من الفراش بقدمين منهكيتين وعينين شبه مفتوحتين وأمعاء يقرصها الجوع قرصاً. ألقيت نظرة عبر النافذة، رأيت الغراب يبتعد، أخذت صورته تصغر حتى تلاشت. السماء كانت محتشدة بالنجوم، والقمر كان أحمر اللون قاتمًا وكأنه كان مشتعلًا. أخبرني جدِّي أن الناس - قبل أن ينزل القمر من السماء - كانوا يرونه كمصباح مضيء معلق فوق السحاب، وأنهم استيقظوا ذات يوم ليجدوه قد غادر مكانه، كبر حجمه وتغيّرت ملامحه، ومنذ تلك اللحظة وكل من ينظر للقمر يراه بصورة مختلفة عن تلك التي يراه عليها غيره من الناظرين. ولا أحد يعرف - حتى يومنا هذا - هل نزل القمر من السماء؟ أم أننا صعدنا إليه؟

لا أعرف إلى أين سيحمل البحرُ رسالتي هذه، ومن الذي ستلتقطها شباكه، وستداعب أوراقها أصابعه، وستقرأ كلماتها عيناه. جدِّي كان يقول إنّ هناك عوالم كثيرة يعيش فيها بشرٌ مثلنا، وأنا

مجرّد سكّان في بقعةٍ من الأرض لم نخترَ أن نولد فيها، ولم نخترَ أن تبني بيوتنا فوقها.

دعني أحدثك عن عالمنا باختصار شديد كي لا أرهق ريشتي وأفرغ دواة جبري في وصف أمور بعيدة عن الهدف من كتابة هذه الرسالة. نعيش في بيوتٍ تطل على الشاطئ، بيوتنا مختلفة في الأشكال والألوان، بإمكان كل ساكنٍ أن يحدث من طراز بيته ولكن؛ الألوان التي تطلّى بها البيوت إجباريّة، ليس لنا دخل في اختيارها، حالها كحال قمصاننا، ومراكبنا. تستيقظ من نومك، تتنّعب، تتمطى، ثمّ تكتشف أن لون قميصك قد تغيّر بينما كنت مستغرقاً في نومك، تشاهد أحلامك وهي تحلّق في سماء عينيك كالوطاويط.

لا أدري كيف هو الحال في عالمكم، جدّي أخبرني أن هناك بشر يحسبون أعمارهم بالساعات، في عالمنا، نعرف إلى أين وصلت مراكبنا في بحر الزمن من ألوان قمصاننا.

البحرُ هو مصدر رزقنا الوحيد، أخبرني جدّي أنّ الذين سكّنوا الأرض قبلنا قد غرقت ممالكهم وامتلاً البحر بكنوزهم التي تلتقطها شبانكا اليوم. لم تعجبنا فكرة الأوراق الملونة التي كانوا يستخدمونها في الشراء والبيع، تلك الأوراق الملونة قد دفعت الناس للسرقه والنصب وزرعت في قلوبهم الحقد والحسد، وتجنيباً لآثارها السيئة نتعامل فيما بيننا بنظام «المقايضة»؛ نتبادل السلع والخدمات، يفيد بعضنا بعضاً بعلمنا ومهاراتنا، ورغم ذلك؛ لم نقض على أكبر أعداء البشريّة على مرّ العصور؛ الفقر.

اعذرني أيها القارئ؛ أحياناً أصبح كثير الكلام، ودائماً أعاني من أفكار مشوشة، وذاكرة مضطربة، ولذلك؛ ستجدي أقفز بين الأحداث كأنني يبحث عن جزرة، ولكن؛ أعدك أن الرواية التي سأقصّها عليك ستعوضك عن عيوب راويها.

اتكأت على حافة النافذة، أشعلتُ لفاقة تبغ من النوع الرخيص، وقفت أتأمل ذلك الكلب الذي يقبع عند المدخل منذ أن قررتُ أمي أن تغادر منزلنا. كان الكلب متكوراً على نفسه، خرج أبي من البوابة، فكّ الحزام من عنق الكلب ثم وضع أمامه طبقاً ممتلئاً بالعظام المختلطة ببقايا اللحم. جلس أبي على ركبتيه وأخذ يداعب رأس الكلب بأصابعه في رفق.

منذ رحيل أمي عن بيتنا صار أبي رجلاً كئيباً غريباً، يسلمه ليلاً معتمٍ لآخر أشدّ منه ظلاماً. أضناه التفكير فيها وتحولت حياته لعلقم يشربه ولا يستسيغه.

وقفتُ أمام المرأة أرمق ذلك الرجل الغريب في سخط، لم أكن أبداً راضياً عن ملامح وجهي السمراء، شعري الخشن، وجسدي الشديد النحول. ورثتُ ملامحي من أمي، وصرت نسخة منها على هيئة رجلٍ، وكان هذا الشبه بيننا يسعدني كثيراً، ويقتلني في ذات الوقت.

عدت إلى النافذة من جديد، كان الكلب يتمسح في أقدام أبي الذي وقف يتأمل القمر وهو باسط كفه يده أمام وجهه وكأنه يتفادى ضوءاً يؤلم عينيه. نظرتُ للقمر فوجدته شبه مظلم. تذكرت كلمات جدّي

عن نظراتنا المختلفة للقمر، وأنه لا يراه اثنان بنفس الصورة أبدًا. عدت لأبي فوجدته يسير بوجهٍ شاحبٍ وخطواتٍ بطيئةٍ وظهرٍ منحنيٍ نحو المكان الأكثر رعبًا في عالمنا؛ مدينة الظلام.

قفزت فوق درجات السلالم في رشاقة، عبرت بوابة منزلنا، وانطلقت إلى الشارع الذي يفصل بين الشاطئ ومدينة الظلام. كان يضيئه نورٌ واهنٌ، جوُّه كان خانقًا، وهوأه كان شحيحًا. لم ألمح أبي في مجال رؤيتي، لم يكن الشارع خاليًا أيضًا؛ كان مزدحمًا بعشراتٍ من الناس، يرتدون ملابس متباينة الألوان، ويمارسون أنشطةً مختلفةً؛ رأيت خمسة رجال قد صنعوا دائرةً بأجسادهم وانهمكت أفواههم في حديثٍ ساخن. رأيت رجلًا وامرأةً قد تشابكت أيديهما، كانا يسيران جنبًا إلى جنب في سعادة وتودة. رأيت أطفالًا صغارًا يبحثون عن حلوى داخل حقيبة سوداء ملقاة فوق رصيفٍ متسخ. رأيت سيّدة هادئة الملامح تستند بظهرها إلى سيّارة أخفى التراب لونها، كان العرق يصنع فوق وجهها بحورًا وأنهارًا. رأيت شيخًا طاعنًا في السنّ، يحمل فوق كتفه جذع شجرة ضخماً، ويمضي في طريقه بخطواتٍ ثابتة. مع كل خطوة كانت تخطوها أقدامي؛ كانت سحب الظلام تتكاثف فوق رأسي، الرؤية أصبحت ضبابية، الخوف بدأ يطوّقني، الذكريات استيقظت في رأسي، والهواء صار أكثر برودةً.

عبرتُ بوابة مدينة الظلام العملاقة وأنا أرتجف كالممسوس، التفتُ ورائي في قلق، شعرت ببعض من الراحة عندما رأيت البحر في نهاية الطريق ووراءه قطعة صغيرة من القمر أعادت الطمأنينة لقلبي رغم حمرة المخيفة.

كانت البيوت متراصة على جانبي الطريق، متلاصقة، متشابكة، دون فراغ يفصلهم، أو علامة تميّزهم. الظلام قد طمس البيوت فلم يعد للطرز أهمية، والسواد قد فرد جناحيه في السماء فتشابه الأبيض مع الأسود. كل ذرّة في جسدي كانت تترجّاني لكي أعود. تذكرت كلمات جدّي: «الخوف يأكل الرُوح». قرّرت أن أقضي على خوفي قبل أن ينشِب مخالبه في صدري.

مدينة الظلام هي مصدر الرُعب والقلق في حياتنا؛ يفصل بينها وبين بيوت الشاطئ شارعٌ طويلٌ يمكننا رؤيته عبر نوافذ بيوتنا الخلفية. بوّبتها مفتوحة طوال الوقت، وزيارتها مسموحة للجميع، وما يحدث لمن تلمس أقدامه أراضيها يفوق قدرة أي إنسانٍ على الاستيعاب والفهم.

لا أحد يعرف من هو حاكمها. يقول بعض الناس إنها مدينة لا يحكمها أحد، ويظن أكثرهم أنها مدينة ملعونة، ورأيهم هذا لم يأت من فراغ.

إذا دخل المدينة أحد سگان الشاطئ تستقبله شوارعها في ترحاب، وإذا دخلها أكثر من شخصٍ واحد في نفس الوقت تغلق بوابتها في وجوههم، ولا تفتح إلا إذا تفرّقوا، وفي الداخل؛ لا يعثر أحد على من جاء للمدينة معه أبدًا.

كل زائر يعود منها بقصةً مختلفةً تمامًا عن قصص الآخرين، يختلف وصفهم للشوارع، للبيوت، لملامح الأشخاص والأشياء. رأى بعضهم شوارعها مضيئة، وأقسم غيرهم أنهم لم يلمحوا مصباحًا

واحدًا فيها. جزء من زوارها قالوا إنّ بيوتها كثيرة وقصيرة، وآخرون قالوا إنّ بيوتها معدودة ومبانيها مرتفعة شاهقة. شاهدتُ في أحد شوارعها ذات يوم رجلًا وتحدّثتُ معه، وعندما قصصت ما حدث لجبراني أكدوا لي أن هذا الرجل الذي قابلته لم يغادر الشاطئ أبدًا.

المصاييح التي يأخذها الزوّار معهم تضيء أشياء وتعجز عن إنارة أشياء أخرى. تسلّط مصباحك نحو بيتٍ فتتكشف تفاصيله بوضوح، وتقربه من وجه رجلٍ يقف أمامك مباشرةً فلا ترى إلا سوادًا مخيفًا.

في كل مرّة تعبر فيها بوابتها تجد تفاصيلها قد تغيّرت عن زيارتك السابقة، أحيانًا تبدّل البيوت والشوارع أماكنها، وأحيانًا تختفي بيوتٌ وتتلاشى شوارعٌ بأكملها.

كثرت الأقاويل عن مدينة الظلام، وتباينت بين حقائق يقسم الناس على صحتها، وإشاعات مزيفةً ظلّت الأفواه تتناقلها دون كلل. يؤمن معظم سكان الشاطئ أن الظلام قد سيطر عليها عندما غادر القمر مكانه في السماء، وهبط إلى الأرض، وأن القمر يتحكّم في نظرة كل شخص لها، وفيما يراه داخلها. ويؤمن آخرون بأنّ القمر لم يغادر مكانه، ولا يقف وراء البحر، وأنه مجرد خيال قايع في رعوسنا، ولذلك يراه كل شخص منّا بصورةٍ مختلفة.

الغريب أن تلك المدينة التي تغطّيها ستائر ليلٍ حالِكٍ وينتاب من يدخلها خوفٌ عظيمٌ، تجذب سكّان الشاطئ لها كالمغناطيس، وتسيطر على عقول الكثير منهم وكأنها جنٌّ يلبسهم ويدفعهم لإلقاء أنفسهم في حفرةٍ مظلمةٍ بكامل إرادتهم.

يحلم العديد من سكّان الشاطئ بالانتقال للسكن هناك، ويوافقون على التضحية بكل ما يملكونه من أشياء في المقابل. جدّي كان يقول عن مدينة الظلام: «العقل يدفع الإنسان نحوها، والعقل لا يذهب إليها أبدًا».

دعنا نعود سويًا لذلك اليوم الذي قررتُ فيه أن أفضيَ على خوفي، وأن أخطو داخل شوارع المدينة التي كانت حينئذٍ مظلمةً أكثر مما ينبغي. أخرجت المصباح الصغير من جيبي، نزعت عنه الغطاء الحديدي فانبعث منه نورٌ أزرقٌ كان ذات يوم قنديلًا مضيئًا يسبح مع أولاده القناديل الصغار حتى قرّر رجلٌ أن يصطاده ويصنع منه مصباحًا. مددتُ يدي التي تحمل المصباح أمام وجهي، أخذت أدقّ النظر في كل ما تستطيع عيني أن تراه. لا أعرف العلاقة بين الظلام والحرّ، ولكنّي دائمًا أتصبّب عرقًا أثناء السير في تلك الشوارع الخائفة. بدأ السكّان الفضوليون في الظهور من النوافذ الضيقة، لم أتبيّن ملامحهم، ولكنني شعرتُ بدهشتهم وهم يتساءلون في صمتٍ عن سبب وجودي في أحيائهم وسط سكون ليلهم الذي لا ينجلي. فجأة؛ اخترق حاجز الصمت صوتٌ أقدام كانت تتحرّك في هدوءٍ وثبات، بدأ قلبي يعزف لحن الخوف فوق طبوله، تبدّل صوت الأقدام بصوتٍ أنفاسٍ لاهثة أخذت تقترب مني حتى شعرتُ بحرارتها في ظهري، فكّرتُ أن أركض ولكنّي تذكرتُ أن الخوف يأكل الروح، قررتُ أن أواجه خوفي، وأن ألتفت لهذا الصوت، وعندما التفت؛ رأيتُ غرابًا.

كلما نبشتُ قبورَ ذاكرتي بحثًا عن رحلاتي لمدينة الظلام، كلما كنت أراني أركض فوق أراضيها المعتمة. تارةً أركض بحثًا عمّن رحلوا إليها، وتارةً أركض هربًا من الخوف الذي دومًا ما كان يطوقني فوق أراضيها، يجعلني أقسم أنني لن أعود إليها أبدًا، ودومًا ما كنتُ أعود.

التقيتُ في شوارعها بآلافٍ من البشر، ورغم ذاكرتي التي لم تعد تسمح لي بحفظ الوجوه، فإنني لم أنسَ أبدًا ذلكَ الطفل الذي رأيتُ في عينيه سحرًا غامضًا، وشعرتُ تجاهه بشعورٍ غريب. كان وجهه مضيئًا بوهجٍ له بريقٌ جذاب. مررتُ بجانبه، جذبتني نظرتُه التي رأيتُ فيها همومًا لا تليقُ بسنّه، وسمعتُ - رغم صمته - نداءً استغاثةً كان يخرج من أعماقه.

كان يجلس فوق أحد الأرصفة أمام سور عملاقٍ رسم أحدهم عليه شجرةً يجلس في ظلّها طفلٌ حزينٌ. كان يشبه هذا الطفل في حزنه، وكان القط المتربّع بجواره فوق الرصيف يبدو حزينًا مثله، أو حزينًا عليه. كان يمسك بكلتا يديه ورقةً مطويةً، وكانت يداه ترتجفان بقوة. انحنيتُ بظهري للأمام حتى أقترب من وجهه، سألتُه عن سبب وجوده في مدينة الظلام وحده. أخبرني أنه انتقل للحياة هنا هو وأمه بعدما تخلّى عنهما أبوه وغادر بيت الشاطئ. سألتُه عن سبب مغادرته ثم ندمتُ على سؤالي عندما رأيتُ الدموع تتساقط من عينيه الصغيرتين. قال إنّه لا يعرف السبب، ثم أخبرني أنه رحل بصحبة امرأة. لا أعرف لماذا قرّرت أن أساعد هذا الطفل، ولماذا شعرتُ بأنني أعرفه أو أننا تقابلنا كثيرًا من قبل. وكالعادة؛ حجبّت عني ذاكرتي تلك الأوراق التي أردتُ استعادتها من صناديقها المتربة.

طلبتُ منه أن يصف لي ملامح أبيه، مدّ يده بالورقة التي كان يحملها، تناولتها بجرصٍ، وفتحتها بعناية، ورأيتُ بداخلها رجلًا لم يكن وسيماً ولم يكن قبيحًا، كان عاديًا، ومألوفًا. حفظتُ ملامحه رغم الجودة السيئة للصورة المهترئة بفعل الزمن، ووعدتُ الطفل أن أعثر له على أبيه، وأن أقبّعه بالعودة. تهللت أساريره وارتسمت الضحكة على وجهه وانتقلت سعادته للقط الذي قفز من جبره ثم أخذ يركض خلف ذبابةٍ تدور في دوائرٍ متشابكةٍ بلا هدف.

في طريق العودة إلى الشاطئ كانت البيوت أكثر ألفةً، الوجوه أكثر وضوحًا، الشوارع أكثر إضاءةً، والمصابيح أكثر عددًا. من بعيدٍ رأيت البحرَ بزرقته اللامعة، اخترق أذني صوتُ ارتطام موجاته بالصخور، والنقط أنفي رائحة أملاحه المنعشة. كان القمر - رغم كبر حجمه - معتمًا، والشمسُ كانت ترسل أشعتها في خجلٍ على الأمواج الهائجة. المراكب كانت متراصةً بمختلف أشكالها، وركابها كان الهمُّ بادياً على وجوههم وهم يبحثون عن غذاءٍ لأسرهم وشفاءٍ لأمراضهم ومعجزة تحقق لهم أحلامهم التي تتحوّل في كل ليلةٍ إلى أوهامٍ تؤرّق نومهم وتزيد من سواد ليلهم.

أخذتُ أجول ببصري بين المراكب حتى وجدته. كان يرتدي نفس القميص الأزرق الذي رأيتُه في الصورة. يجلس فوق مركبه، يولي البحر ظهره، وينظر نحو الشاطئ في شرود. اقتربتُ منه،

رمقتي بنظرة أصابنتي بالتوتر. فكّرت في أن أراجع ولكّني تذكرت أن الخوف يأكل الروح. سألته ببلاهة:

- هل يرتدي طفلك قميصًا أخضر اللون؟

قال وهو يتفحصني بنظراته:

- نعم.

سألته باستياءٍ واضح:

- كيف هانَ عليك أن تترك ابنك وترحل؟

قال بفتور:

- سئمتُ الزواج، تعبتُ من المسؤولية، وكاد قلبي ينفجر من الهموم.

غرقتنا في صمتٍ تخلله نظرات شكٍّ ولومٍ، قطعتُ الصمت قائلاً:

- ولماذا تزوّجت من البداية إذا لم تكن قادرًا على رعاية أسرتك؟

قال بفروغٍ بال:

- لم أكن أعرف أن الزواج بهذه الصورة، لو كنت أعرف لما أقدمتُ عليه أبدًا.

قبل أن أفتح صنوبرَ العتاب فوق رأسه رأيت امرأةً فائقة الجمال تقترب بمركبها من مركب الرجل، كانت بيضاء ناصيعة، عيناها زرقاوان تحيط بهما أسوارٌ من الكحل الأسود زادت منهما جمالاً وجاذبيّةً، شفتاها تقاحتان، خدّاهما أحمران، وانحناءات جسدها قاتلة. أخرستني بنظرة واحدة، وجعلته بذات النظرة ينسى وجودي. انحنى أمامها، لثمَ يدها في عشقٍ ثم مد لها يده في سعادة، صعدت إلى مركبه وجلست على حافته، حمل نسيم الهواء رائحتها المثيرة نحو أنفي، نظرت لي في لامبالاة كنظرة غنيٍّ لفقيرٍ لا يشعر تجاهه بأيّ شفقة، قالت للرجل الجالس بجوارها:

-انطلق يا كريم، ليس لدينا وقت للأطفال ومشاكلهم.

نظر الرجل لي نظرة مفادها أنه قد أغلق باب الحديث وأحكم إغلاقه، أمسكتُ ذراعاه بالمجاديف في ثقة، بدأ يدفعها بقوة، وانطلقت مركبهما نحو القمر الذي تلوّن بالأسود وكأنه كان حزينًا على هذا الطفل الذي ليس له ذنب برغبات أبيه، بنزواته، وشهواته. لم ألتق بهذا الرجل مجددًا، ولم يبرح وجه هذا الطفل مخيلتي أبدًا.

خلعتُ حذائي، تركتُ الرَّمالَ الساخنةَ تداعبُ أقدامي كما كانت تفعلُ أُمي في كلِّ صباحٍ. وقفتُ أمامَ مركبي الذي كان يهتَزُّ مع كلِّ موجةٍ تَمُرُّ من تحته في استسلامٍ. منذ أيام قليلة كان لونُ مركبي أبيضَ كلونِ قميصي، وذات صباحٍ؛ استيقظتُ لأجد قميصي ومركبي قد انتقلت لهما عدوى اللون الأزرق. قال لي جدِّي: «لا تحاول أن تصبغ لونَ قميصك لتخفي حقيقته». لم أفهم ما كان يقصده ولكني سمعتُ لنصيحته، ولم أحاول.

صعدتُ إلى المركب الذي اهتَزَّ وارتجَّ بجنونٍ كأنه كان يرحب بي بطريقته الخاصة. جلست فوق حافة المركب المتهالكة أخشابه، سرحتُ وأنا أتأملُ الناس كعادتي؛ يبحثون عن أهدافٍ متحرِّكة، يعودون لمنزلهم بمشاعرٍ مختلفةٍ ومِتضاربةٍ، يَنَتَشون بكنوزهم، يلقون شباكهم، ويسبحون في خيالهم طوال الوقت. كواكبٌ يدورُ كلُّ منهم في فلكه، وأنا نجمٌ معنمٌ أراقبهم في صمتٍ.

حملتُ الشباك الملقاة فوق سطح المركب، ألقيتها بكلِّ قوَّتِي ثم جلست في مكاني من جديد. نظرتُ للقمر، سألتُه: «متي ترضى عني وتضيء مصابيحك؟». رمقني بوجهه الأسود في غضبٍ، نظرتُ له في يأسٍ وأنا أستمع للجالس فوق المركب المجاور لمركبي وهو يتحدث مع زوجته عن ضوء القمر الساطع وجماله.

كنت أحسد الناس على قلوبهم الخالية، وضحكاتهم التي لا همَّ فيها، وثرواتهم التي يرسلها لهم البحر استجابةً لابتسامات القمر لهم.

أحدث الجرس المعلق في المركب صوتًا يعلن عن التقاط شباكي شيئًا. سحبتها في لهفةٍ وأنا أرسم أحلامًا في مخيلتي، وسرعان ما تبخَّرت أحلامي عندما رأيت ما كان بداخل الشباك. لقد أرسل لي البحرُ زجاجةً. أمسكتها في اشمزاز، نظرتُ عبر زجاجها للورقة المحبوسة بداخلها، تخيلتُ أن هناك رجلًا عالقًا في جزيرةٍ بعيدة، رجلًا يستجد بشخصٍ لينقذه عبر هذه الرِّسالة، أو عجوزًا محنكًا امتلأت صناديق حكته فأخذ يملأ بجبرها أوراقًا ويقذفها في البحر حتى يفيد بها الجهلاء من أمثالي. ألقيتُ بالزجاجة فوق سطح المركب في لامبالاةٍ، لم أشعر بحاجةٍ لنصائحٍ وحكمٍ، ولم يكن باستطاعتي أن أساعد أي إنسانٍ لأنني لم أكن قادرًا على مساعدة نفسي. بنيتُ من أحلامي قصرًا عملاقًا، ثم جاءت رياحُ الزمن ودمرتَه تدميرًا، وعرفتُ متأخرًا أنه كان قصرًا من ورقٍ.

رأيتُ مركبًا يتحرَّك بهدوءٍ بين الأعين التي كانت تلتهمه بنظراتٍ ذاهلةٍ. لا أعرف إذا كنت ممن يعرفون شاطئنا أم أنك تسكن بلادًا بعيدةً ورسالتني - بطريقةٍ ما - نجحت في الوصول إليك. دعني أخبرك أن المراكب هنا لا يحركها الناس إلا قليلًا، من التقطت شباكه رزقًا في بقعةٍ معيَّنة من البحر لا يغادرها أبدًا، ومن لم يرسل له البحر شيئًا ذا قيمةٍ يخشى أن يترك مكانه فيحصل غيره على رزقٍ كان يسبح في اتجاهه. كل شخصٍ يخشى أن يغيَّر مكانه فينظر له الناس في سخريةٍ، ولا أحد يعرف - رغم تعدُّد الآراء - هل الرزق يرسل للمراكب، أم للرُّكاب!

اقترب المركب المتحرِّك من مركبي، كان يقوده شابٌّ عريضُ الكتفين، شاهقُ الجسد، لحيته طويلة، شعره طويل، وعضلاته المفتولة تبرز من قميصه الذي كانت أزواره مفتوحة حتى منتصف بطنه.

ابتسامته الهادئة خففت من جدّة ضخامته. قال بلا أدنى تردّدٍ بعدما أصبح مركبه ملتصقًا بمركبي:

- هل معك لفافة تبغ؟

تقرّست في ملامحه وأنا أخرج لفافةً من علبتي الحديدية. ناولته إيّاها فالتقطها ودسّها بين شفّتيه ثم قال وهو يشعلها بقدّاحة ذهبية لامعة:

- كيف تراه اليوم؟

لم أفهم مقصده، أدرك أنني لم أفهم فقال مستدرّكًا:

- كيف ترى القمر اليوم؟

تفكّرتُ مليًا ثم قلت:

- مظلم كالعادة.

سكّت لبرهة ثم سألته في اهتمامٍ مصطنع:

- وأنت؛ كيف تراه؟

قال وهو يهرش شعر رأسه:

- يبدو لي محمرًا كالجمر المشتعل، أتعجّب من الذين يتحدثون طوال الوقت عن بياضه وجماله في حين أجدُ مدينة الظلام أكثر جاذبيّة من وجهه القبيح.

راق لي وصفه للقمر، ابتسمتُ في إعجابٍ ثم سألته:

- هل تزور مدينة الظلام كثيرًا؟

انفجر في ضحكةٍ اهتزّ لها جسده ثم قال بصوتٍ أجشّ:

- أزورها؟! أنا أقضي ثلاثة أرباع يومي هناك، أعود منها فقط في موعد النوم.

عشينا الصمتُ لدقيقةٍ قبل أن أسأله في تردّد:

- من الذي انتقل للحياة هناك وتريد أن تقضي معه كل وقتك؟

اغرورقت عيناه بالدموع، مسحها بطرف قميصه ثم تتحنح وقال بصوتٍ مختنق:

- كل الناس؛ أبي، أمي، أصدقائي، حبيبتي. لم يعد أحدٌ يسكن الشاطئ إلا أنا.

قلتُ وقد بدأتُ أشعر بالرتاء لحاله:

- أنفهمُ حزنك، ولكن؛ لماذا لم تغادر معهم؟

قال وهو ينفث الدُخان:

- طلبات سماسرة الظلام تفوق كل قدراتي، وتكلفة الانتقال لا أستطيع أن أتحمّلها.

قلتُ في محاولةٍ لتغيير الموضوع:

- جدّي كان يقول: «الأرض التي تطوها قدماك، ازرعُ فيها جنّتك».

أوماً برأسه موافقاً ثم لاذ بالصمت قبل أن يصدر جرس مركبه صوتاً فجّر أساريه. سحب شيباكه، ووسط دهوري؛ أخرج منها صندوقاً ذهبياً لم أر مثله في حياتي. احنّلت وجهه ابتسامة واسعة كشفت عن أسنانٍ صفراء، وضع الصندوق أسفل قدميه ثم قال في امتنانٍ وهو يمسك بالمجاديف:

- لقد أحببتُ جدّك وكلماته.

أدار مفتول العضلات دفةً مركبه بعدما أرسل له البحر ذهباً في نفس البقعة التي لم أغادرها أبداً، ولم أعثر فيها إلا على النفايات، والزجاجات.

وضعتُ المفتاح في بابِ منزل الشاطئ ثم أدرتُ آليّة القفل، استقبلتني اللوحة المعلقة فوق الحائط المواجه للباب، كانت رسمةً لشجرةٍ عملاقة تعودت على رؤيتها منذ أن كنتُ طفلاً. ألقيت بجسدي المنهك فوق الأريكة المجاورة للباب، أخذت أتأمّل الحائط الذي كان أبيض ناصعاً قبل أن ألطّخه بعشرات الأقلام الملونة، كان أكبر أحلامي وقتنّذ هو أن تعطيني أمي ورقة لأرسم فيها، وأكبر مخاوفي حيننّذ هو أن تكتشف أمي أنني رسمتُ فوق الحائط.

وقفتُ خلف باب غرفة أبي، دققتُ فوقه برفق، لم أسمع رداً، فتحته بهدوء ثم دلفت إلى الغرفة. سرير أمي على نفس الحال منذ أن قرّرت الرحيل عنّا، ما زالت عباؤها الصفراء ملقاةً فوق السرير، لم تأخذها مع الأشياء التي أخذتها قبل أن ترحل، لم يشأ أبي أن يحركها من مكانها، ولم يعد قادراً على أن يدخل هذه الغرفة ولو للحظات.

أتذكّر أنني في طفولتي كنت أقف بجوارها دائماً وهي تمسّط شعرها أمام المرأة، أتأمّل جدائلها السوداء، أترجّأها لكي تتركني أربطها، تجلس فوق المقعد الخشبي في استسلام، تتأمّلني في المرأة بابتسامةٍ عذبة وأنا أتصبّب عرقاً بينما أحاول أن أنجح في مهمّتي المستحيلة، تلتقت فجأة وتحملني ثم

تلقيني فوق السرير، تقفز بجواري في رشاقة، ثم تدغدغني بأصابعها. كنتُ أضحك حتى تكاد أنفاسي تنقطع.

لو كنت أعرف أن سعادتني ستتلاشى بعدما أكبر لتمنيتُ أن يتوقف الزمن عند تلك اللحظة، ولو كنت أعرف أن أمي تفكر في الرحيل عنا؛ لما تركت جدائلها تفلت من يدي أبدًا.

ضاققت بي الغرفة حتى أصبحت عاجزًا عن التنفس. خرجت منها، أغلقتُ بابها ثم وقفت خلف باب مكتب أبي. طرقتُ بابه برفقٍ قبل أن أسمع صوت أبي وهو ينهض عن مقعده. كان الباب – كعادته – موصدًا بالمفتاح من الداخل، فتحه أبي ثم عاد لمقعده في صمت. دلفتُ إلى الحجرة، جلستُ فوق المقعد المواجه لمكتب أبي. سألته عن صحته وأحواله، ردّ على تساؤلاتي بإجاباتٍ مقتضبة. لم يكن أبي رجلًا كثير الكلام، ولكنه كان مصدرًا للسعادة والبهجة في البيت. لم يكن من هواة الانعزال والكتابة أبدًا، ولكن؛ تغيرت كافة صفاته وأفعاله بعدما جذب أمي هدوء الظلام وسكينته.

هكذا صار أبي؛ يغادر المنزل كل يوم، يختفي لساعاتٍ في مدينة الظلام، ثم يعود ليغلق الباب عليه، يجلس فوق مقعده، ويسرح في صمتٍ طويلٍ لا يقطعه سوى هجوم النوم على عينيه.

أدخل عليه كل يوم لأجده واقفًا أمام مكتبة الكتب العملاقة، يتأمل الرفوف المزدحمة بأكداسٍ من الكتب، ولا يلمس أيًا منها. ينهكه الوقوف فيجلس فوق مقعده وراء المكتب، يحمل ريشته ويبدأ في إغراق الأوراق ببحورٍ من الكلمات قبل أن يسافر على متن باخرة النوم.

يأكل من الطعام ما يبقية على قيد الحياة، وأحيانًا أقل. ولا يقترب من مركبه الذي غلفه الطين وأصبح مأوى للقطط الضالة.

رفع وجهه ببطءٍ وكأنه قد أدرك للتوّ أنني أجلس أمامه، أطال النظر لوجهي كأنه يحاول أن يتعرّف على ملامحه، ظهرت على وجهه ابتسامة بذل جهدًا كبيرًا في رسمها ثم قال:

- هل التقطت شباكك رزقًا اليوم يا فارس؟

أمسكتُ يده وشددتُ عليها ثم قلت:

- لا تقلق يا عمّ أيوب، الرزق كثير والقمر مضيء وكافة الأمور بخير.

سكتُ لبرهة ثم سألته بإشفاق:

- إلى متى ستحبس نفسك يا عمّ أيوب؟

نظر لي بأعينٍ دامعة ثم قال بهمسٍ كالفحيح:

- حتّى تعود أمك لبيتها يا فارس.

انحنى مقترباً من يدي، لثمها، قبّلت رأسه، وتركته يعود لأوراقه. غادرت المكتب وأنا أحاول أن أخفي دموعي وهمومي حتى لا أضع إصبعي على جروح هذا المسكين.

لا أعرف كثيراً عن الزواج في بلادكم، ولكن؛ الزواج - كما أعرفه - هو مأساة بمعنى الكلمة. أن يسكب اثنان مشاعرهما في طبق التعارف، ثم يدخلانه فرن الزواج، وعندما يخرج من الفرن طفلاً لا يعرف شيئاً عن الحياة، يطعمانه بخلافاتهما، ويغطيناه باختلافاتهما، ويمطران فوق رأسه عيوبهما، ولا يجد لأفاتهما من مهرب.

دلفتُ إلى غرفتي، خلعت قميصي الأزرق وألقيته فوق السرير، خرجت إلى الشرفة وأنا أحمل الزُجاجة التي أرسلها لي البحر، دسستُ إصبعي في فوّتها لأخرج الورقة التي لا أعرف كم مكثتُ في محبسها هذا دون هواء. فككتُ طيّتها وقرأتها في برود:

«دوماً ما كان البشر يسعون خلف ما لم يطرق أبوابهم، يبحثون عن السعادة في البلاد البعيدة، ولا ينظرون أبداً في جيوبهم، يظنون أن الرزق - حتى يصير رزقاً - عليه أن يلمع، وتجلب عقولهم الهمّ لقلوبهم، يقضون في جمع الأشياء أعمارهم، ويدركون بعد فوات الأوان أنهم بددوا حياتهم على السّير في طرقٍ لا تليق بهم».

تلك الصخرة الملقاة أمام منزل الشاطئي لها في أرشيف ذاكرتي ملفاً ضخماً، لم أعرف من جاء بها لهذا المكان، سمعتُ أنها كانت جزءاً من بيتٍ نقله أصحابه لمدينة الظلام وبقيت هذه الصخرة ملتصقةً بمكانها. كبرتُ وأنا أرى أمي تجلس فوقها كل يوم؛ تتأمل البحر والقمر، تحمل فرشاتها، وترسم لوحاتها. أدخلتني أمي إلى عالمها السحري، زرعتُ عشق هذه الصخرة في قلبي، ثم رحلتُ عن بيتنا، وبقيتُ أنا على نفس الحال؛ يفرح الناس فيتجمعون، ويحتفلون، وأشارك أنا صخرتي أفراحي. يصيبهم الهُم ويغلبهم اليأس، يفرّون من بيوتهم إلى أماكن تعيد البسمة لوجوههم، وتشفي أرواحهم المعتلة، وأجلس أنا في نفس المكان، أشكو لصخرتي من العالم فتضمّني بقلبها الحجريّ.

كان الفقر يحيط بي من كلّ اتجاه. المعاناة كانت السمة الرئيسية لحياتي. ورغم أننا نمثلك في بيتنا ثروة هائلة؛ فقد رفض أبي أن نفرط في ورقةٍ من أوراقها. لم تكن ثروتنا مالاً، ولم تكن ذهباً؛ كانت ثروتنا عبارة عن مكتبة ممتلئة بالكتب. أخبرني جدّي أن الناس في العوالم الأخرى لديهم وسائل متعددة للاستمتاع والتسلية، حكى لي عن مكعبات حديدية تعرض لهم صوراً ملوّنة، وعن مراكز تسير فوق الأرض وتنقل الناس بين البيوت والبلدان، وعن أسلاك مطاطة تسمح لهم بالتواصل مع أشخاص يسكنون بلاداً يفصل بينهم وبينها بحورٌ وأنهارٌ. لم أعرف هل كانت هذه المعلومات حقيقية أم أنها قصة خرافية من قصص جدّي الذي اعتدنا أن نصنع دائرةً حوله ونستمع لحكاياته في إنصات.

عالمي كان خالياً من هذه الأشياء السحرية، ومتعتي الوحيدة كانت قراءة الكتب. لم يكن كافة سكان الشاطئي من هواة القراءة، كان معظمهم بسطاء في حياتهم، طريقة تفكيرهم، وفي الكتب أيضاً. الطبّاحون كانوا يبحثون عن الكتب الخاصة بوصفات الطعام وطرق إعداده، المسعفون كانوا يتبادلون الكتب الطبيّة، المهتمّون بالأعشاب كانت تجذبهم كتب النباتات والزرع، الأطفال كانت تلفت أنظارهم القصص الملوّنة، والشباب كانت تعجبهم الروايات. عددٌ كبير من مدمني القراءة أصابتهم عدوى تجميع الكتب؛ أصبح شغلهم الشاغل هو تبادل كل شيء يملكونه بأي نوع من الكتب يقع في طريقهم. أمي كانت من النوع الأخير؛ كانت تمتلك عدداً هائلاً من الكتب، وضعتها بعناية فوق رفوف مكتبتها العملاقة، ورفضت أن تضحّي بورقةٍ واحدة حتى لو كانت ستستبدل بصندوقٍ مليءٍ بالذهب. كانت مغرمةً بالقراءة لدرجة أنها كانت تعشق رائحة الورق، تتحسّس بأصابعها الجلود المهترئة والكلمات البارزة، تغرق في الكتب التي تقرأها لدرجة أنها لا تسمع من يتحدث بجوارها، لا تشعر بالدنيا من حولها، ولا تتوقف أبداً عن القراءة مهما حدث.

من بين آلاف اللحظات التي قضيتها وأنا جالسٌ فوق صخرتي المفضّلة؛ لا أنسى أبداً ذلك اليوم الذي كان مختلفاً ومخيفاً. قضيت الليل مستيقظاً في ظلام غرفتي الدامس، أصارع أفكارى الشيطانية، تنتصر تارةً وأصرعها تارةً أخرى، وعندما توغّل نور الصباح من فتحات النافذة؛ كنت قد قرّرت أن أتجرأ وأسرق كتاباً من المكتبة. عاتبني ضميري بقسوة، وأخرسته بجملة جدّي: «الجوع مجرمٌ لا يعرف عن الرحمة شيئاً».

قفزت فوق السلالم في خوف، انطلقت نحو بائع الطعام الذي استقبلني بابتسامة باردة ثم قال بفقدان صبرٍ:

- قلت لك يا فارس إنني لن أعطيك طعامًا مقابل تلك الأوراق القديمة التي يرسلها لك البحر.

أخرجت الكتاب من حقيبتي المتهالكة، سألته في تحدٍّ:

- ولا مقابل كتاب به ألف وصفة طعامٍ جديدة؟

نظر للكتاب في ذهول، لمعت عيناه، وتبدلت طريقة معاملته، صنع لي شطيرتين ممتلئتين باللحم الذي كنت قد أوشكت على نسيان شكله. أعطاني الشطائر ومعها كوب من اللبن الطازج. تركته يقلب في صفحات الكتاب الضخم وتوجَّهت لصخرتي في انتشاءٍ مختلطٍ بتأنيب ضمير.

فور أن وضعتُ أوَّلَ لقمةٍ في فمي ظهر أحد المتسولين فجأةً وكأنه قد خرج من باطن الأرض. مدَّ يده في تبجُّح وطلب منِّي قطعة من الشطيرة. أردتُ أن أصرفه بعيدًا حتَّى أستمتع بشطيرتي التي اقترفت جرمًا عظيمًا في سبيل الحصول عليها، ولكن وجهه الشاحب ونظراته اليائسة جعلاني أعطيته الشطيرة الأخرى التي كنت أنوي أن أكلها عند الغروب.

كان وجهه ملطَّخًا بالطين، ملابسه كانت ممزَّقة، باليةً، تنبعث منها روائح نتيَّة. نظر المتسول لي غير مصدِّقٍ، خطف الشطيرة من يدي ثمَّ جلس فوق الرَّمال بجوار الصخرة، أخذ يقطع اللقيمات بأصابعه ثم يدفعها إلى جوفه، يبتلعها دون أن يمضغها. كان من الواضح أنه لم يرَ طعامًا منذ أيام وأن مشكلته لم تكن في اشتياقه للحم كما كان الحال بالنسبة لي. لم يكن مهتمًّا بالمذاق، كل ما كان يريده هو أن يستشعر طعم الشبع مرَّةً أخرى. حاولتُ أن أستعيد شهيتي ولكنها كانت قد تبخَّرت مع اندفاع رائحة هذا الرجل إلى أنفي المسكين. قال المتسول وهو يلهث:

- هل تسمَح لي برشفةٍ من كوبِ اللبن؟

قضى سؤاله على أحلامي بوجبةٍ سعيدة هادئة، ناولته الكوب في استسلام، أخبرته أنه بإمكانه أن يشربه بالكامل. لم يبدِ أيَّ انفعال، دفع محتويات الكوب إلى جوفه مرَّةً واحدة ثم تکرَّر بصوتٍ مقرَّن. انتظرتُه أن يصطحب رائحته معه ويرحلا بعيدًا ولكنه نظر لي بوجهٍ يكسوه الرضا وقال:

- لأنك كنتَ كريمًا معي؛ سأحكي لك سرِّي الذي احتفظتُ به في صدري وحفظته بعيدًا عن مدارك الناس.

نظرتُ له في لامبالاةٍ لعلَّه يدرك أنني لستُ مهتمًّا بقصته، ولكنه عاد بظهره ليستند إلى صخرتي ثم قال مسترسلًا:

- عندما كنتُ شابًا قميصه أزرق مثل قميصك؛ كنت مثقلًا بالأمنيات، أحلامي كانت تفوق قدراتي، واليأس كان يندرنى بسوادٍ قاتمٍ، وعذابٍ قادمٍ. ذات يوم أخبرني أحد أصدقائي أن هناك ساحرًا يسكن جزيرة تقع أسفل القمر، وأنه قادر على تحقيق الأحلام في غمضة عين؛ مهما كانت مستحيلة. حذرني الناس من الانسياق وراءه ولكني قرّرت أن أجرب حظي. قلت لنفسي «لن يحدث لك أسوأ مما قد حدث». مرّت أيام ونحن نجدف بمراكبنا بكل قوتنا في اتجاه القمر. كنّا نراه مضيئًا، وكان النظر إليه يبعث في صدورنا شعورًا بالسعادة والبهجة. اتفقت مع صديقي أن نتبادل المناوبات، أحرصه وهو نائم، ويحرصني وأنا نائم. ذات يوم؛ سمعنا أصواتًا مفرجةً تطنّ في آذاننا. أخذت جدّة الأصوات ترتفع حتى أصبحنا عاجزين عن تحمّلها. لا أعرف كم من الوقت مرّ علينا ولكني استيقظت على منظر لم أستطع أن أنساه أبدًا. لم يكن القمر في مكانه. كان قد تبدّل ببركانٍ هائل. لم يكن صديقي موجودًا هو الآخر، كان قد اختفى هو ومركبه. الضباب كان راقدًا على سطح الماء، والرؤية كانت مستحيلة. فجأة؛ سمعتُ صوت انفجار هائل. ورأيت مشهدًا تقشعرّ له الأبدان. رأيتُ البركان ينفجر وتخرج من فوهته النيران كأنه تتّين أسطوريّ. سمعتُ صوتًا مخيفًا يأتي من السماء، وعندما رفعت رأسي، رأيت غرابًا، ثم اتضحّت الرؤية بعدما انقشع الضباب. كانت السماء مزدحمة بعشراتٍ من الغربان، تطير على مقربةٍ من رأسي، وتصدر نعيقًا مرعبًا. أجز ما أتذكّره كان منظر الجمم وهي تتطاير من فوهة البركان وتستقرّ فوق سطح البحر الذي تحوّل لونه الأزرق للونٍ أحمرٍ قاتمٍ. بعدما عادت الرؤية؛ كنت متمددًا فوق الرمال، الناس الذين تجمّعوا حولي كانوا يطرحون أسئلةً مختلفةً عن اسمي والمكان الذي قدّمتُ منه ومصدر الدماء التي كانت ملتصقةً بملابسي الممزقة، أسئلة كانت تبدو عاديةً، ولكني لم أستطع أن أجاب عليها؛ لأنني لم أتذكّر أيّ شيء. انتشر خبر خروجي من البحر بين الناس كما تنتشر النار في نثار البارود، مرّت أيام وأنا أنام فوق رمال الشاطئ، يطعمني سكان البيوت، حاول الكثير من طبيي القلب أن يعثروا على أهلي أو أقاربي، وعندما فشلت محاولاتهم، وملوا من مساعدتي؛ تركوني لموج الحياة يقذفني، يغمرنني، ويصارعني، وتحولتُ من ساعٍ خلف الأحلام لرجلٍ يسعى خلف لقمة عيشٍ وشربة ماء.

سألته باهتمام:

- ولكنك لا تتذكّر شيئًا عن حياتك، لماذا لم تفكّر في أنك - ربما - مصابٌ بنوع من الهلوسة أو الأوهام، أو أنك كنت تخوض كابوسًا مفرعًا وظننته قد حدث بالفعل؟

قهقه المتسوّل كاشفًا عن أسنانٍ سوداءٍ مخيفة ثم قال:

- بعد أيام من عودتي من الرحلة المشؤومة؛ أرسل البحر لأحد الصيادين البؤساء صندوقًا خشبيًا ضخمًا، فتحه الرجل ليجد بداخله جثة صديقي الذي فقدت أثره أثناء الرحلة. كانت جثته ينقصها قدماه، وذراعاه، ولسانه. ورأسه كان مفصولًا عن جسده ومثبتًا في بطنه بمسمارٍ ذهبيّ.

كاد قلبي أن يغادر قفصي الصدريّ من فرط الرعب، شعرتُ بلساني يعجزُ عن النطق، وتخشب جسدي في مكانه. اقترب المتسوّل بوجهه المتسخ من وجهي وهو يقول بصوت هامس:

- تقول إنه ربما كان كابوسًا مفرعًا وظننته حقيقة؛ ماذا لو أخبرتك أن حياتك كلها عبارة عن كابوس مخيف، وأنتك أجلاً أم عاجلاً ستستيقظ منه، وسترى الحقيقة التي لم تدركها بعقلك البسيط.

قال كلماته ثم قفز واقفًا وقال:

- أشكرك على الشطيرة واللبن.

مضى المتسول مبتعداً وهو يضحك بصوت مرتفع في انثناء، لم أنس - رغم ذاكرتي العليلة - كلماته أبداً.

صعدت إلى مركبي وأنا أرتعد من الخوف، ألقيتُ شباكي في البحر ثم أخذت أتأمل وجوه الناس المطمئنة لكي أخرج رأسي من الحفرة التي ألقاني فيها هذا الرجل المخيف. كانت الأمواج في هذا اليوم عالية متضاربة، الرياح كانت شديدة، والأكثر رعباً من تأثيرها؛ كان صوتها من بعيد ظهر مركب كان يبدو وكأنه قادم من عند القمر الذي كان معتماً، مقفراً. أخذ المركب يتقدم ببطء في اتجاهي، عندما اقترب استطعت أن أتبين ملامح ركبته، رأيت شاباً عاري الصدر يقف فوق حافته في رشاقة مخيفة، يتمايل المركب مع الأمواج ولا يهتز الرجل أبداً، أرتجف من البرد ولا يبدو أنه يشعر بحرارة الجو. وراءه كان يجلس رجل عجوز، وجهه منكمش، عيناه غائصتان، وجسده أكثر مني نحولاً وضعفاً، ورغم ذلك؛ كان يدفع مجاديف المركب بقوة شاب يشع قلبه طاقةً وحيويةً.

أوقف العجوز المركب ثم هتف في صوتٍ جهوري:

- أيها الصيادون، البحر ملعون. تعطيه أعلى ممتلكاتك، تزدهر حياتك. من يتردّد ويبخل، لا يطلب، لا يسأل.

وسط ذهولي بمنظره وكلماته؛ رأيت العديد من سگان الشاطئ يتسابقون على إعطاء هذا العجوز أشياء قيّمة لا يفرط فيها إلا من فقد عقله وأصابه الجنون. رأيت من يعطيه ذهباً، من يعطيه فضةً، ومن يعطيه كتباً نادرة، حتى إنني رأيت رجلاً خلع ملابسه وأعطاه للرجل الذي كان ينظر مباشرةً في عيني غير مكترث بالأشياء التي امتلأ بها مركبه. يلقيون هذا العجوز بـ «جالب الخير»، ويقولون إن من يعطيه أعلى ممتلكاته يرسل له البحر كنوزاً لم يحلم بها من قبل. جدّي كان يقول: «لا يوجد وسيط بيننا وبين البحر، ولا يمكن لإنسانٍ - مهما كان - أن يوجّه الرزق نحو مركبه أو مراكب الآخرين».

وقال أيضاً: «هناك بشر يعجب الناس بكلماتهم المعسولة، ووجوههم المضئنة، وأهدافهم الظاهرة للعيان، ولا يرون نياتهم المخبأة وراء أفتعهم الجذابة».

كان جدّي مثاليًا بصورة مفرطة، ولذلك؛ لم أتبع كافة نصائحه رغم أنني صدقت كل كلماته.

وضعتُ يدي فوق صدري أتحنّس السلسلة التي لم تغادر رقبتني أبداً، فكرتُ في أن أعطيها لهذا العجوز ثم نبذتُ الفكرة جانباً. حدّق الرجل في وجهي في غضبٍ ثم قال:

- ما سيحدث لك لن تجدَ له معنى، لقد اخترتَ لنفسك اللعنة.

قال كلماته الأخيرة ثم أدار مركبه وتحركَ مبتعداً وهو يكرّر كلماته المتجانسة:

- أيها الصيَّادون، البحر ملعون. تعطيه أعلى ممتلكاتك، تزدهر حياتك. من يتردّد ويبخل، لا يطلب، لا يسأل.

قبل أن يختفي العجوز أعلن الجرس عن النقاط شباكي شيئاً. سحبتها متلهّفاً، خرجتُ من البحر تحمل صندوقاً خشبياً قديماً. لم أفقد الأمل رغم منظر الصندوق المتهاك، ولكني فقدته بعدما فتحته لأجد بداخله طحالب سوداء كريهة الرائحة. طلبتُ من البحر ألا يرسل لي أوراقاً فقرر أن ينتقم مني، وأرسل لي أوساخاً.

من غرائب القدر أنه يجعلك ترى ما ينقصك في أكثر أوقاتك ضعفاً. كنت مدفوناً في حفرة عميقة من الفقر عندما ظهر أمامي هذا المركب الذي لم تغب صورته عن خيالي أبداً. كانت سفينة عملاقة لم أر مثلاً من قبل، مصنوعة من الذهب الخالص، لم أكن أعرف أن هناك - في العالم كله - كمية الذهب هذه، وأنا الذي تبدّل لون قميصه أربع مرّات دون أن أحمل بين أصابعي قطعة ذهبٍ ولو لمرّة واحدة.

كانت السفينة مسقوفةً بسقفٍ فضي مغطّى بالنقوش. يبرز منها أربعة تماثيل عملاقة لرجل يرفع يده في سعادة، وعلى وجهه ابتسامة فخر وزهو. على متن هذه السفينة رأيتُ عشرات من الرجال؛ يعملون في نشاط وهمّة، رأيتُ رجلين ضخميّ البنية يدفعان مجاديف السفينة، ورجلاً عراة الصدور مكفهريّ الوجوه قد برزت عروق وجوههم وهم يسحبون الشباك العملاقة والتي عادت من البحر وهي تحمل صناديق من الذهب الواحد منها بحجم مركبي أو أكبر. رأيتُ نساءً لم أر في مثل جمالهن أبداً، يرتدين ملابس تكشف من أجسادهن أكثر مما تغطي، ويصنعن دائرةً حول مقعدٍ يشبه مقاعد الملوك التي رأيتُ رسوماتها في الكتب القديمة.

وسط ذهولي؛ فتحت الدائرة، وظهر من بينهنّ ذلك الرجل الذي كان من الواضح أنه يمتلك كلّ شيء. رأيتُه من ظهره ولم أتبيّن ملامح وجهه، ولكن؛ ما رأيتُه كان كافياً لإبهاري. كان يرتدي قميصاً مرصّعاً بمئاتٍ من قطع المجوهرات الثمينة؛ ذهب، ألماس، ياقوت، وجواهر أخرى لا أعرف نوعها. بالكاد يظهر لون قميصه الرماديّ. رأيتُه يشير لبعض الرجال في حزم. أصابعه كانت منتقخة بخواتم ضخمة تلمع تحت أشعة الشمس. كل من كان يقف أمامه كان ينحني حتى يكاد يلمس الأرض برأسه، يضمّ كفيه أمام وجهه في توسّل واحترام، يتلقّى منه الأوامر ثم ينصرف في خشوع. النساء كنّ يلتمن يده كلما مدّها إليهن، كان يشير لإحداهن فتأتي مسرعةً ثم تجلس على ركبتيها أمامه، يداعب وجهها بيده فتقبلها في سعادة ثم تنصرف. لم أر وجه هذا الرجل ولكني حفظته في

أرشيف ذاكرتي، ولم أفكر — ولو للحظة — في أن أحلم بالوصول إلى هذه المكانة. كان يبعد عني كبعد الشمس عن الشاطئ.

تلك المراكب الفخمة كان أبي هو أشهر من يصنعها بين كافة صنّاع المراكب في عالمنا. عمله كان كافيًا لشراء طعامنا وشرابنا، ولكنه لم يجعلنا نرتقي لنسكن بيوتًا مثل بيوتهم، أو نصنع لأنفسنا سفينةً مثل هذه. كانت أمورنا تسير بصورة جيّدة حتى قرّرتُ أمي أن تنتقل لمدينة الظلام. رغم اعتلال ذاكرتي؛ أتذكر بوضوح آخر حوار دار بينهما. كنت في غرفتي عندما سمعتُ صوتهما وهما يتشاجران كالعادة، تسللتُ من حجرتي في هدوءٍ، وقفتُ خلف باب المكتب الذي كان مواربًا. رأيتُ أمي تقف أمام مكتبة الكتب العملاقة، أبي كان ممسكًا بيدها، وعيناها كانتا تسكبان من الدموع أنهارًا فوق قميصه الأصفر. نظرتُ له أمي في شفقةٍ ثم حملت حقيبةً صغيرة لا تكفي لتلث ملابسها، خرجت من المكتب لتجديني واقفًا أمام بابه، كنت مدهوشًا لدرجة أنني لم أبدأ أيّ انفعال. نظرت لي أمي في أسفٍ وقالت:

- سأنتقل لبيت جدك يا فارس.

سألتها في بلاهة:

- بيت جدي في مدينة الظلام؟

هزت رأسها بالإيجاب ثم قبّلت رأسي وأغلقت الباب وراءها دون تردّد. هرعْتُ إلى النافذة لأجد رجلًا نحيلًا يزيّن وجهه شاربٍ كث يقف أمام بوابتنا. فور خروجها من البوابة حمل عنها حقيبتها ثم أمسك يدها وانطلقا معًا في تودة. بعد خطوتين التفتت أمي ثم رفعت رأسها نحو الشرفة وعندما وجدتني أتأملها ابتسمت في خضوع، افتكتُ يدها بصعوبة من بين أصابع هذا الرجل الغريب، لوحت لي وهي تبتسم في برود.

مدّ الرجل يده مرّة أخرى، أمسكتها في هدوءٍ ثم لفت وجهها، تابعتها حتى دلفا إلى الشارع المؤدّي لمدينة الظلام. هرعْتُ إلى مكتب أبي، فتحت النافذة المغطاة بستارة سوداء والتي كانت تطل على هذا الشارع. رأيتهما يسيران معًا كأنهما زوجان متحابّان. اغرورقتُ عيني غير مصدّقة أن أمي تركت أبي من أجل هذا الرجل. تابعتها حتى بلعها الظلام. أفقت من ذهولي على دلو عتابٍ يلقي فوق رأسي لأنني لم أمنعها من الرحيل ولم أسألها عن هذا الرجل الغريب الذي اختطفها من بيننا بكامل إرادتها. لم أعد أبدًا بعد هذه اللحظة كما كنت قبلها، شعرتُ أن الأبواب قد أوصدت في وجهي، وأن النيران تأكل قلبي، وأنني قد تلقّيت صفةً دون يد.

جدي كان يقول:

«هناك أشخاص لا تدرك أنهم كانوا يحملون مصابيح حياتك إلا عندما تجد الظلام يغلفك بأصابعه الباردة بعد رحيلهم.»

جَدِّي كان يقول: «إن أجمل ما في الأحلام أننا لا نندكرها». وأنا – رغم ذاكرتي المعتلة – أتذكر بعض الكوابيس بتفاصيلها، وتأبى ذاكرتي أن تمحوها من دفاترها الممزقة.

في أغرب كوابيسي؛ كنت جالساً فوق سطح مركبي، وكان غرابٌ متشبهاً بحافة المركب بمخالبه الحادة. كان ينظر لي في تحدٍّ، وكنت مرتاحاً هادئاً رغم الخوف من الغريبان الذي ورثته عن أمي.

السماء كانت ممتلئةً بسحبٍ حمراءٍ داكنة، والقمر كان غائباً، أو مختبئاً خلف السحب المتكدسة. فتح الغراب فمه ولكنه لم ينعق؛ فتح فمه لكي يتكلم. قال الغراب:

- بين كل الكائنات التي قابلتها في حياتي؛ لم أرَ أسوأ من الإنسان.

سألته متعجباً:

- ولماذا يا سيّد غراب؟

التفت بوجهه الصغير نحو البحر الممتدّ ثم قال:

- تتشاءمون بوجود الغريبان بجواركم، تصعقكم رؤيتنا، وتخيفكم أصواتنا، تنظرون لنا نظرةً دونيّة، وأنتم في الحقيقة أقلّ منّا شأنًا وأكثر منّا عيوبًا.

ضحكتُ ساخرًا ثم سألته:

- وكيف هذا يا سيّد غراب؟

هجم بمنقاره على ذبابةٍ مسكينة ثم قال وهو يلوكها:

- نخاف على زوجاتنا، نحميهنّ من الأخطار، بينما أنتم – بنو الإنسان – ترحلون عن بيوتكم وتخلون عن عائلاتكم. لا نخشى الطيور الجارحة ما دمنا ندافع عن أهلنا، بينما أنتم – بنو الإنسان – تخافون مما تعرفونه، وما لا تعرفونه. تتهمونا بنيش قماماتكم رغم أنكم تخربون كل شيء حولكم. تعلقون ما آلت إليه أموركم فوق سماعات الظروف، ولا تدركون أن ما يحدث لكم قد وُلِد من أرحام أفعالكم، أفكاركم، وقراراتكم.

أزالت كلماته نظرات السخرية من فوق وجهي، لم أنبس، فأتبع قائلاً:

- ولكننا متشابهون يا عزيزي الإنسان!

سألته في دهشة:

- وفيما الشَّبَه يا سيدي الغراب؟

أطال لي النظر ثم قال:

- نقلت أيَّ غراب مصاب بعدوى قد تنتقل لنا، وتطردون من حياتكم الضُّعفاء وقليلي الحيلة ومن لن ينفعكم ولن يرفعكم. موتانا نعدُّ لهم جنازَ تليق بهم مثلما تفعلون، نتجمّع حول جيّهم والحزن يخيم فوق رعوسنا، ولكننا نحزن على موتانا من قلوبنا، لا ندّعي الحزن، ولا نفتعل المواساة، ولا نضع أقنعةً مثلما تفعلون. وأكثر ما يجعلنا متشابهين يا عزيزي الإنسان هو أننا ننجذب للذهب مثلكم، يلعب في أعيننا، ننقضُّ عليه، نجمعه، نملأ به أعشاشنا، وتضعونه أنتم في خزائنكم، تتردونه في أياديكم، وتعلقونه في رقابكم.

نظر لي الغراب ثم قال بصوتٍ أمر:

- استيقظ يا فارس.

قبل أن أستوعبَ كلماته أصدر صوتَ نعيٍّ مخيِّفاً، فتحتُ عينيَّ على إثره، كنت متمدداً فوق سريري، وبحورٍ من العرق كانت تسيل على وجهي. وقفتُ عارياً تحت الماء، تركته ينساب على جسدي لعلِّي أستيقظ. لبستُ قميصي الأزرق ثم مضيت مسرعاً في الطريق المؤدي لمدينة الظلام.

ابتلعتني شوارع المدينة، أخذتُ أتقلُّ بين حواريها، كلما كنت أتوغلُّ في متاهاتها كان الظلام يزداد عمقاً. أسفل عمودٍ مضيء بنور باهتٍ رأيتُ أصدقائي الثلاثة يجلسون حول منضدة خشبيّة في منتصف الطريق. كعادتهم؛ يتجمّعون حول لوح الدومينو، يخنثفون حول قوانين اللعبة، ويتهمُّ بعضهم بعضاً بالغشِّ والخداع. يتحدثون بجديّة مفرطة ثم تهجم عليهم نوبة ضحك هستيريّ. تندفق من أفواههم خراطيم من الشتائم فلا يعرف من يراهم؛ هل يمزحون، أم أنهم على وشك القتال!

رأوني قادماً من بعيد، استقبلوني بحرارةٍ فاجأتني، تخلّصت من إلحاحهم علىّ بالبقاء معهم بأن أخبرتهم أنني على موعدٍ مع أمي وجدّي، وليتُ لهم ظهري ومضيت في طريقي وأنا أستمع لصوتِ ضحكاتهم الصاخب وهو يخفت تدريجياً حتى اختفى.

من بعيدٍ ظهرَ بيتُ جدّي، كان مضاءً بلمبةٍ ساطعة، محاطاً ببيوتٍ معتمة. لفحني هواءٌ منعشٌ وشعرتُ براحةٍ وسكينة فور أن رأيتُ أمي تقف في الشُرْفَة وتلوِّح بيديها في سعادة. سمعتُ أصواتاً قادمةً من البيوت المجاورة لبيت جدّي ولكني لم أهتم، أدركت - من كثرة زياراتي - أن أكثر الأمور غرابةً تحدث دائماً في بيوت هذه المدينة.

الظلام في مدخل البيت كان خانقًا، أخرجتُ مصباحي الصغير من جيبِي، أزلتُ غطاءه فانبعث منه ضوءٌ أزرقُ افترشت دائرته الأرض. سعدتُ السلامِ الحجرية في حذر، في طفولتي؛ تعثرتُ كثيرًا فوق سلامِ جدِّي، جرحتُ نفسي عشرات المرّات، ولطختُ الدماءَ قميصي الأخضر كثيرًا.

أقسمتُ ألا أبكي أمام أمي، عاهدتُ نفسي أن أتماسك، ولكني فور أن رأيتها أجهشتُ في البكاء. جدِّي كان يقول: «الدموع تقفز من شرفات الأعين رغم إرادة الإنسان».

ألقيتُ بهمومي في حضنها قبل أن ألقى بجسدي، مسحتُ خوفي بيديها الناعمتين، ضممتني لصدرها، سمعت صوت دقات قلبها الذي اعتدت أن أستمع إليه كل ليلة قبل أن أخلد إلى النوم. عبرت وراءها الباب الضيق، ودخلت بيت جدِّي الذي كان شاهدًا على أجمل أيام حياتي. التقط أنفي خليطًا من رائحة عطر أمي ورائحة طعامها الذي كان يغسل روعي فور أن يداعب لساني. لم أفهم كيف تحوّل بيت جدِّي الواسع الذي كنت أركض فيه وأختبئ بين طرقاته لبيتٍ صغيرٍ مكوّن من صالة ضيقة وحجرتين أكثر ضيقًا. حاولت أن أتمالك نفسي وألا أخرج ما بداخلي أمام أمي ولكني – كالعادة – فشلت. سألتها بصوتٍ مليءٍ بالحزن واللهفة:

- لماذا رحلتِ عن منزلِ الشاطئِ يا أمي؟

أخذتُ نفسًا عميقًا ثم زفرتهُ بهدوءٍ وقالت:

- أريد أن أرتاح يا صغيري.

سألتها متعجبًا:

- وهل راحتكِ في الظلام؟

سكنت قليلاً ثم قالت بصوتٍ ممتلئٍ بالمرارة:

- متى كانت آخر مرّةٍ رأيتني لا أعاني ولا أتألم يا فارس؟

سألتها وأنا أحاول أن أتماسك عن البكاء:

- وهل حياتك معنا في منزل الشاطئ هي سبب تعبكِ؟

اغرورقتُ عيناها بالدموع وهي تقول:

- لا تقل هذا، أنت أجمل ما أرسله القدر لي، لولاك يا صغيري لما تمكّنت من تحمّل الآمي وهمومي أبدًا.

سكت قليلاً ثم قلتُ لها في أسَى واضح:

- أعرف أن أبي ...

قاطعتني:

- فارس؛ أنا هنا مرتاحة، وقلبي لا يؤلمني، ألا تريد أن تراني سعيدة؟

نظرتُ لها متمعناً، شعرتُ أن عَينها - رغم البكاء - كانت قد استعادت بريقها، أو شيئاً منه. سألتها في غضب:

- من هذا الرجل الذي رحلت من بيتنا معه يا أمي؟

أشاحت بوجهها، ولاذت بالصمت. قطع حبل أفكارني صوتُ سعالٍ أجش. التفتُ لأجد جدّي (حكيم) يخرج من غرفته. كان - كعادته - يرتدي جلبابه الرماديّ الفضفاض، ويستند إلى عكازه البنيّ الأنيق. جدّي حكيم هو أكثر إنسانٍ أثر فيّ بكلماته، وهو سبب زيارتي التي لا تتقطع لمدينة الظلام التي انتقل للحياة فيها منذ أن كان قميصي أحمر اللون.

انحنيتُ لألثم يده، وضع رأسي بين راحتي يديه ثم قبلها محدثاً صوتاً مميّزاً لأذني. أجلسني فوق أريكته المريحة ثم جلس بجواري. اقتحمتُ أنفي رائحةَ عطره المريحة للأعصاب، نظرتُ في وجهه المبتهج، لم تكن هناك شعرة سوداء واحدة في رأسه أو ذقنه التي كانت تصل لمنصف بطنه. كان جدّي حكيم أنيقاً، تستطيع أن ترى ذلك في حذائه الذي لا تجرؤ ذرةً غبارٍ واحدة أن تلوّث لمعته، وفي جلبابه النظيف الذي كنت أختبئ داخله عندما كان قميصي أخضر اللون، وفي رأسه المنتفخ بألاف القمص التي كنت أتوسّل لأمي لكي تسمح لي بالمبيت عنده حتى أستمع إليها. خرجت يدُ جدّي من جيب جلبابه ترتعش بقوة وهي تحمل بعضاً من الحلوى التي كانت ترسم السعادة على وجهي فور رؤيتها، قال وهو يقترب بوجهه المضيء:

- هل كبرت على حلوى جدك حكيم؟

التقطتها من بين أصابعه ثم دفعتها إلى فمي بسرعة. ضحك جدّي في انتشاء. أعادني مذاقها لأيام حبيبها عني ذاكرتي المعتلة رغم عشقي لها. سألني جدّي عن أحوالي، وكنت أنتظر سؤاله هذا بفارغ الصبر. انفجر بركان همومي في وجهه، وهبت رياح أفكارني لتَهزّ جلبابه الفضفاض. استقبل جدّي طوفان الشكوى المنذفع من فمي بابتسامة هادئة. لم يقاطعني، لم يؤنّبني، ولم ينصحنني. فقط كان يستمع لي في إنصات. فور أن انتهيتُ شعرت براحة غامرة وكان قلبي قد أنعشه ماءً مثلج. قبلتُ رأسه، لثمتُ يديه، ونهلْتُ من عطره فملأتُ به صدري. دخلتُ غرفة أمي لأودعها، كانت منهمة في الصلاة، وعندما فرغت من صلاتها اقتربت مني واحتضنتني بقوة.

تحت المصباح المتدلي من الشرفة وفتت بجوار جدّي، كنت قد أصبحت أكثر منه طولاً، ورغم ذلك؛ كان ظلّه يغطيني. قال لي جدّي:

- لا تكثر زيارتك لمدينة الظلام يا فارس؛ حتّى لو كنت مشتاقاً لمن يسكنونها.

لم ينتظر مني ردّاً، دلف إلى بوابة منزله ثم ابتلعه الظلام، في حين وقفت أُمّي في الشرفة وأخذت تلوّح بيدها وهي تبتسم في سعادة.

فوق صخرتي المفضّلة جلستُ أتأمّل وجوه الناس. كانوا – مع اختلاف ملابسهم وأفعالهم – يحملون فوق أكتافهم أفكاراً وأحلاماً تورّق نومهم، تزرع في أراضيهم القلق، وتدفعهم للبحث عن أهدافٍ متحرّكة، ما إن يبلغ أحدهم هدفاً وترتاح أكتافه من الأحمال حتّى تتجذب عيناه لثقلٍ جديدٍ رآه يلمع من بعيد. كان جدّي يقول: «الخوف المعلق برقبتك يحجب عنك سعادتك».

هبط أحد الرجال من مركبه ثم مضى يركض فوق الرمال وفجأة؛ توقّف وهتف بصوتٍ جهوريّ:

- يا أهل الشاطئ، أنقذوا أنفسكم من اللعنة.

أخذ الناس يتوافدون من كلّ حدبٍ وصوب. قال وهو يشير بأصابعه في اتجاه القمر:

- انظروا، إنه الغضب! الفيضان يقترب.

رأيتُ الناسَ يميل كلُّ منهم على كتفِ الواقف بجواره، يهمس في أذنه، ويتبادل معه الكلمات، ثم تحوّلت همساتهم لشهقاتٍ وصرخاتٍ عندما قفز الكلب الأسود الذي يسكن بوابة منزلنا على هذا الرجل، أغلق فكّيه على معصمه بقوة، ثم أخذ الكلب يشدُّ الرجل من يده وهو يصدر صوتاً مخيفاً. بدأت الدماء تسيل من يد الرجل الذي لم يتحرّك، لم ينظر للكلب، لم يتأوّه، وكأنه حيوانٌ أليفٌ يداعب صاحبه المنشغل في مطالعة الجريدة. فجأة؛ نظر الرجل للكلب ثم لطمه بقوة، تكوّم الكلب تحت أقدام الرجل لا حراك به. رفع الرجل يده التي تنهمر منها الدماء ثم عاد يشير للقمر وهو يقول:

- إذا أردتم النجاة لا تنظروا للقمر، الظلام هو الحلُّ الأمثل.

رأيتُه يتحرّك بخطواتٍ ثابتةٍ وأعينٍ ذاهلةٍ في اتجاه الطريق المؤدي لمدينة الظلام. كان يكرر كلماته الأخيرة:

- الظلام هو الحلُّ الأمثل.

فور أن اختفي هذا الرجل عن الأنظار عادت الحياة لجسد الكلب الذي عدلّ من وضعيّته وتحفّز للانقضاض على رجلٍ كان يقف بجواره، هرع الرجل نحو مركبه في دعر. وقفت أتابع الكلب الذي أخذ يتحرّك بخطواتٍ بطيئةٍ فوق الرمال متجهاً إلى بوابة منزلنا.

أمام البوابة لمحتُ أبي واقفاً دون حراك. وقف الكلبُ أمام أبي ثم أخذ يتمسح في قدميه. انحني أبي، أخذ يداعب ظهر الكلب بأصابعه بهدوء وهو يبتسم في سعادة، أغمض الكلب عينيه في انتشاء ثم تكوّر على نفسه ليعود لوضع الارتخاء المفضل لقلبه. كانت السماء مغطاة بغيوم كثيفة وكأنها كانت تهددنا بالمطر. لمحتُ شيئاً ضخماً بجوار أبي لم أكن قد رأيته في البداية. كان يبدو وكأنه سور يبلغ ارتفاعه ضعف طول أبي. اقتربتُ خطوتين وهنا سقطت الدهشة فوق رأسي كالْمِطْرَقَة. كان أبي يقف وبجواره مكتبة الكتب العملاقة التي تشغل نصف مساحة غرفة مكتبه. اقتربت أكثر، زادت دهشتي أكثر. الكتب كانت مترابطة فوق الرفوف بنفس ترتيبها، لم يتغيّر مكان كتاب واحد. بدأت الأسئلة تهطل فوق رأسي كالْمِطْر.

كيف استطاع أبي المصاب بالتهابات المفاصل وضعف العضلات أن يحمل مكتبة تحتاج خمسة رجالٍ أصحاء لكي يحملوها؟

كيف خرجت هذه المكتبة من باب الحجر الضيق ثم باب الشقة ثم البوابة الأكثر منهما ضيقاً؟

كيف نقلها - من نقلها - دون أن يسقط منها كتاباً واحداً؟

فجأة؛ انتفض الكلب ثم أخذ ينبج بقوة وهو ينظر لبوابة منزلنا المظلمة، فهمتُ سير نباحه عندما رأيت خيالاً يخرج من البوابة. ظننتُ في البداية أنه أحد أقاربنا الذين كانوا يكثر من زيارتهم لمنزلنا قبل رحيل أمي لمدينة الظلام، وبعد ذلك أصبحتُ لقاؤنا معهم شحيحةً وعلاقتنا بهم باردةً كمكعب ثلج. تبددتُ ظنوني عندما رأيتُ ملامحها؛ كانت - من خرجت من بوابة منزلنا - امرأةً فائقة الجمال، عيناها سوداوان جذابتان ممثلتان بالغموض، بشرتها سمراء لامعة، شعرها أسود قائم ومنسدل إلى أسفل ظهرها، وجسدها ممشوق القوام يتراوح بين النحافة والامتلاء في مثالية. كانت ترتدي فستاناً رمادياً رغم أنها كانت تبدو أصغر من اللون الرمادي. تحمل فوق كتفها حقيبة سوداء، وحول رقبتها رأيتُ وشاحاً أسود اللون يتماشي مع عينيها وشعرها وحقيبتها.

وقفتُ بجوار أبي الذي كان مستنداً بكتفه إلى المكتبة العملاقة. أخرجت من حقيبتها زجاجة شفافة بداخلها سائل أحمر داكن. أخرجت كأساً من الحقيبة ثم سكبت من الزجاجة حتى امتلأت الكأس بالسائل الأحمر. ناولتها لأبي الذي نظر لها في استسلام ثم قرب الكأس من فمه. صرختُ بأعلى صوتي، مزقتُ صرختي سكون الشاطئ، لم ينتبه أبي لوجودي، ولم يلتفت. كنت أشعر بقوة خفية تمنعني من الحركة، جاهدتُ كثيراً حتى تمكنتُ من تحريك أقدامي المتخشبة. رأيتُ أبي يعيد الكأس لهذه المرأة بعدما أصبحت فارغة. رأيتُه يمسح عرقه المنهمر بكف يده. كلما كنت أخطو تجاههما خطوة كنت أشعر أنهما يبعدان عني خطوتين. تكاثفت السحب الحمراء فوق رأسي، ثم بدأ المطر في الهطول. شعرت بقطرته تصطدم برأسي وكأنها أحجار مديبة. وسرعان ما تلوّنت الأمطار باللون الأحمر الداكن. تغلغت في أنفي رائحة الدماء الحارة، وغرق قميصي فيها حتى عادت له حرته. ازدادت الأمطار سخونة حتى شعرتُ بأن جلدي يحترق. وفجأة؛ سمعت صوتاً مألوفاً يقول:

- استيقظ يا فارس.

وَعِنْدَمَا فَتَحْتُ عَيْنِي؛ رَأَيْتُ غَرَابًا.

في الشارع المؤدي لمدينة الظلام رأيت رجلاً وامرأة يجلسان تحت ظل شجرة، تحوم حولهما أسرابٌ من الطيور وكأنها تحميها من أنظار الحاقدين. توغلت في الظلام أكثر، اختفت معالم البيوت والشوارع. التفت حولي في حذر، رأيت البحر يزداد ابتعاداً. دلفت في شارع ضيق كان ينتهي بمبنى مكّون من طابقٍ واحد. وقفت أسفل المنزل ثم رفعت رأسي للشرفة الخالية وأطلقت صفيراً مميّزاً حتى تعرف «حرية» أنني قد وصلت. كان المبنى مظلماً حتى خرجت حرية إلى الشرفة. أطل وجهها على العالم فتوهجت مصابيح العواميد، ظهرت نجومٌ في السماء لم يكن لها وجود، وانقشعت غيوم الظلام. سقطت وردةٌ من شرفة حرية. انحنيت والنقطة، شممت رائحتها العطرة ثم أغلقت أصابعي عليها برفق. أحسست بقلبي يرقص من السعادة فور أن خرجت من بوابة منزلهم. كانت ترتدي فستاناً أبيض اللون، وتزيّن رقبتها قلادةً محفور عليها كلمة «فارس». رأيت كثيراً من النساء ولكن؛ وجه حرية – بالنسبة لي – كان مقياساً حقيقياً للجمال. شعرها الأسود الفاجم، عيناها البنيتان، ابتسامتها الساحرة، وجهها الذي كان يحتقن بالدماء إذا نظرت إليها وهي تتكلم، ورائحة الورود التي دوماً ما كانت تتبعث منها. رأيتها ألف مرّة تسقي الورود التي زرعتها في شرفة منزلهم، وتساءلت كثيراً:

«هل تشم حرية رائحة ورودها؟ أم تشم الورود رائحة حرية؟».

عائنتني لأنني لم أزرها منذ أن انتقلت لمدينة الظلام، ثم أمسكت يدي وقبّلتها. وضعت يدي حول كتفها ومشيئاً معاً في طريقٍ طويلٍ تظله الأشجار. مررنا ببيتٍ صغيرٍ محاط بسور تغطيه أعواد الفل والياسمين. قالت حرية:

- أتمنى أن نعيش معاً في منزلٍ كهذا.

ألقيت نظرةً فاحصةً على المنزل وكأني بصددٍ شرائه ثم قلتُ لها باستهانة:

- ولكنه منزل صغير لا يليق بجمال وجه حبيبتي.

احمرّ وجهها – كعادتها – من الخجل، قالت وهي تبتسم في عنوبة:

- وجودك معي يا فارس سيجعله أعلى قصرٍ في الدنيا.

كان جدّي يقول: «قلبٌ راضٍ وجيبٌ فاضٍ خيرٌ من أن ينتفخ جيبك ويبتئس قلبك».

في منتصف الطريق، وبينما أنا وحرية منهمكان في التخطيط لحياتنا؛ رأيت امرأةً تستند إلى إحدى الأشجار، وتظر في عيني بجرأة جعلتني أشعر بالخجل. اقتربنا منها فظهرت ملامح وجهها. كانت هي نفس المرأة الجذابة التي جعلت هذا الرجل الذي يدعى «كريم» يترك ابنه ذا القميص الأخضر

ويرحل معها. كانت ترتدي فستاناً يظهر من جسمها أكثر مما يخفيه. نظرات عينيها الزرقاوين جعلتني أتصبّب عرقاً وكأنّ ناراً قد شبت في صدري. رائحتها المثيرة تسلّقت أوردتي صعوداً لعقلي الذي ترجمها لرغبة جعلت جسدي يرتجف بقوة.

أيقظتني حرية من غفاتي بلكمة قويّة في كتفي. وبّختني كثيراً وبررت لها كثيراً، عادت تتحدّث عن أحلامها بينما ظلّت رائحة هذه المرأة معلّقة فوق جبال أنفي. التقت ورائي كي ألقى نظرة أخيرة أشبع بها عينيّ الجائعتين. نظرت إلى بطريقة جعلت رغبتي تشتعل أكثر. كانت عيناها كمغناطيس يجذبني بقوة سحرية. هربت من عينيها بأعجوبة ثم التقت عائداً لحرية التي لم تكن موجودة بجواري. بحثت عنها في كافة شوارع مدينة الظلام، ولم أجد لها. فكرت في أنها قد اقتنعت بكلامي وعادت للشاطئ، وبالفعل؛ وجدتها تجلس فوق مقعد خشبيّ أمام البحر. كانت - كعادتها - تلقي أحجاراً صغيرة في المياه. اقتربت منها وأنا أجهز مبرراً يليق بغضبها. قبل أن أصل لحرية رأيت صديقاً قديماً يهبط من مركبه والابتسامة تتموّج في وجهه. أغضبني ظهوره المفاجئ في وقت غير مناسب. توقفت مبهوراً عندما رأيت يوقف أمام حرية، يتحدّث معها والابتسامة لا تفارق وجهه. رأيت يخرج جفنة من الورود كانت مخبأة وراء ظهره. مدّ يده لحرية التي تناولت منه الورود دون تردد. انحنى، أمسك يدها، ثم قبّلها. تشابكت أصابعهما، رأيتهما يسيران معاً في سعادة. احتقن وجهي بالدماء. مرّت حرية بجواري، احتكت كتفها بكتفي، ولم تلتفت لي، كأنها لا تعرفني، كأنني حشرة متناهية الصغر لا تراها الأعين ولا يشعر بوجودها إنسان، كأنني حبة رمل تدهسها الأقدام ولا يبالي بأمرها أحد. رفعت الوردة التي سقطت من شرفة حرية أمام وجهي، رأيتها تذبل وتكمش. تذكرت جدّي عندما قال: «مشاعرنا تجاه الآخرين تشبه الورود؛ تولد، تخضر، تذبل، ثم تتكمش».

أدركت أنني زرعت وروداً في حدائق قلبي لمن لا تعرف كيف تسقيها.

اخترقت شوارع مدينة الظلام وأنا مختنق بالغضب والكراهية. لم يكن شيئاً يداعب تفكيري سوى هذه المرأة الجذابة، أحسست أنها البوابة الوحيدة التي قد تقودني للراحة. مسترشداً برائحها المثيرة وصلت لنفس المكان الذي رأيتها فيه. وقعت عيني عليها فتهللت أساريري. اقتربت منها وأنا أرتعش في خوف. وقفت أمامها مباشرة. فكرت في ألف كلمة قد تقال، وعجز لساني عن النطق بكلمة واحدة. رفعت يدها في هدوء ثم أدخلت أصابعها في شعري، جذبت رأسي بقوة إلى صدرها. لامس أنفي جلدها الساخن، أصابتي رائحتها بشلّل تام. أبعدت رأسي ثم اقتربت من أذني، همست بكلمات لم أسمعها بوضوح ولكنني أحسست بطنين، وبصوت ينبعث من أعماقي؛ صوت يأمرني بأن أبتعد، وبترجّاني في نفس الوقت أن أقرب أكثر. وضعت رأسي بين يديها ثم أخذت تقترّب حتى لامست شفثاها فمي المتعرق. كنت أشعر بالجوع كقطة ظلت محبوسة في صندوق مغلق صيفاً كاملاً. أبعدت وجهها، تركت رأسي يتحرّر من بين أصابعها الساخنة، أخرجت من صدرها لفافة تبغ مسكينة ثم دسّتها بين شفثيها. لم تطلب قدّاحة، ولم أنتظر أن تطلب، أخرجت قدّاحتي على الفور، أشعلت لها لفافة التبغ وأنا أزر ناراً كانت موقدة في صدري. رائحتها عطّلت ماكينات عقلي، ونظراتها محت آثار كل من سار بأقدامه فوق قلبي. كانت عيناها ممثلّنتين بالثقة وكأنها كانت تعرف أنه لا يوجد رجل قد يفوّت على نفسه فرصة كهذه، وأن الرجال الذين يؤثرون مبادئهم على غرائزهم قد

انقرضوا مع الديناصورات. مدّت لي يدها فأمسكتها بدون تفكير. قطعنا شوارع لم أشعر بها، مررنا ببيوت لم أنظر لها، وتجمّع خلف النوافذ عشرات من الفضوليين الذين كانوا يرمقوننا في ذهول وإعجاب.

توقفت فجأة أمام بوابة كبيرة يقف أمامها حارسٌ ضخم الجثة. رفع الحارس رأسه، حدّق في وجوهنا ثم انتفض ودفع البوابة بقوة فانفتحت على مصراعها. كانت تمسك يدي وكأنني طفلٌ تاه من أمه. مضينا في طريق ضيقٍ تحيط به صفوفٌ من الأشجار. بين الأشجار رأيتُ أعمدة معلقة فوقها مصابيح مضاءة ولكن شاجبة. على جانبي الطريق رأيتُ رجالاً عراة الصدور، ضخام الأجساد، مفتولي العضلات. كانوا ينحنون لها في احترام وإجلال، وينكسون رؤوسهم بمجرد أن تنظر لوجوههم. صعدنا درجتين من السلالم ثم دلّنا عبر الباب المفتوح إلى بيتٍ كان من الداخل يشبه القصور. رأيتُ فيه مقاعد من الذهب، لوحات فنيّة معلقة فوق الجدران، أعمدة مزخرفة تتدلى من أسقفٍ مرتفعة، وأرائك كبيرة مغطاة بجلود الحيوانات التي كانت رعوسها المحنطة مثبتة في الحوائط. رأيتُ شموعاً نصف محترقة يحملها رجال يقفون بلا حراك؛ كأنهم تماثيل من الشمع نحتها فنّانٌ فائق البراعة والإبداع. مشينا بين حاملتي الشموع ثم صعدنا درجتين من السلالم أودت بنا إلى كرسيٍّ ذهبي يشبه مقاعد الملوك. أجلسني المرأة الجذابة فوق الكرسي، شعرت أنني أعظم رجل في الدنيا. وضعت ساقاً فوق الأخرى في زهوٍ، ضحكت المرأة ثم قالت في ثقة:

- أنت الآن ملك، والملوك يفعلون ما يشاءون.

أشارت لخدم جاء مسرعاً ثم انحنى أمام قدميها، مدّ يده بطبق فضي فوقه كرات بيضاء صغيرة. تناولت منه الطبق ثم أبعثت الخادم بإيماءة من يدها. قرّبت الطبق من وجهي، رأيتُ كرات بيضاء أذهلني مظهرها. كان لها بريق لامع، وكانت تبدو وكأنها أقمار مضيئة. تناولت المرأة إحدى الكرات بإصبعيها ثم رفعتها أمام عيني وقالت:

- هذه هي عشبة القمر، إكسير السعادة الدائمة.

نظرتُ لها في تردّد، قالت وهي تعيدها إلى الطبق الفضي:

- إذا كنت تريد العودة لمركبك القديم ورسائل البحر الصفراء؛ الباب أمامك. وإذا أردت أن تتذوق طعم السعادة، كل ما عليك فعله هو أن تتبلع عشبة القمر.

اقتربت من وجهي حتى شعرت بحرارة أنفاسها ثم قالت:

- تذكر، السعادة لا تدق باباً واحداً مرّتين.

سألتها باهتمام:

- من أنت؟

همست في أذني:

- أنا ملكةٌ لو كنت محظوظًا قد تراني في أحلامك، ولكن؛ إذا تذوّقت عشبَةَ القمر ...

جلستُ على ركبتيها ثم قالت في خضوع:

- سأصبح خادمتك، ورهن إشارتك.

التقطتُ إحدى الكرات البيضاء من فوق الطبق، دسستها في فمي ثم أغلقته، عدتُ بظهري للوراء وأغمضتُ عيني، بدأتُ أشعر بالعشب وهو يذوب فوق لساني. كان مذاقه غريبًا، كأنه عسل مرّ، أو سكرٌ مملّح. بعد قليل لم أعد أشعر بطعمه، ولكني بدأتُ أشعر بالألم في صدري، دقات قلبي بدأتُ تتسارع في جنون. وجهي أصبح ساخنًا كالجمر، وجسدي كان يرتجف من البرد. فتحتُ عيني لأجد كل شيء في القصر يتحرك؛ الأرائك تطير، الأعمدة تتمايل، الخدم يسبحون في الهواء، النساء المرسومات في اللوحات ينظرن لي، يحركن رءوسهن، يضحكن، يقفزن في سعادة. كل شيء حولي كان مضيئًا، كل شيء كان يبيض بالحياة، كل شيء كان يتراقص من فرط السعادة. ضحكتُ من قلبي حتى نسيتُ أنني عرفت مرارة الأحزان، ضحكتُ حتى تلاشى مفهوم الحزن من قواميسي. ثم رأيت عينيها الزرقاوين، رأيتها تتعري من ملابسها حتى أصبحت كيوم ولدتها أمها. نظرت لي في جراحة وكان الحياء لم يطرق لها بابًا من قبل. تمددت فوق فراغ ناعم كان يكسو الأرض، وقفتُ أتأمل جسدها العاري قبل أن أنفضّ عليها كأسدٍ تمكّن من اصطلياد فريسته بعد مطاردةٍ دامت عمراً كاملاً. كانت معركة عادت منها عظامي وهي تصرخ بالألم المتعة، وعاد منها قلبي وهو يدق فوق طبول الانتصار.

أغمضتُ عيني في تلذذ، وبعد برهة؛ فتحتها. كنت ملقًى فوق أرضٍ باردةٍ. الضباب كان يحيطني، ويمنعني من الرؤية، وبعدما انقشع؛ وجددتني عاريًا من ملابسني. كل ذرة في جسدي كانت تصرخ من الألم. وقفتُ بصعوبةٍ بالغةٍ، كان الخدم يحدّقون في وجهي بأعينٍ ذابليةٍ تملؤها الشفقة. سمعتُ صريرَ الباب ثم رأيتُه يفتح لتظهر المرأة الجذابة من جديد. جاءت تتمايل بجسدها في هدوء، وقفت أمامي، نظرت لجسدي النحيل وحالي البائس وهي تبتسم في برود. مدّت يدها، أمسكتها، سحبتني وراءها ثم أصعدتني السلالم، أجلسنتني فوق المقعد الذهبي من جديد. مدّت يدها التي كانت تحمل كرة من العشب الأبيض. أردتُ أن أشعر بما شعرتُ به مرّةً أخرى. خطفتُ العشب من يدها ودفعته في فمي ثم عدت بظهري للخلف ببطء. كان مذاقه هذه المرّة مألوفًا، وكأنه تقاحة أذهلني طعمها أول مرّة ثم اعتدتُ عليه. عادت الألوان تتداخل، والأشياء تتراقص، تطير، تسبح، وتطفو. نهضتُ عن الكرسي الذهبي وأنا أشعر أنني أقوى رجال العالم. حملتها بيدي واحدةٍ كأنها ريشة ليس لها وزن، ألصقتها بأحد الجدران، كبلتُ يديها بأساور من الذهب، وطارحتها الغرام بقوة جعلت الطلاء يتساقط من السقف، والشروخ ترتسم فوق الحوائط. لذة الوصول ألقنتني فوق أريكة مكسوة بالحرير الناعم، ودوّامة النشوة سحبتني فاستسلمتُ لها؛ ولم أقاوم.

أفقتُ من غيبوتي لأجدها أمام وجهي، كانت تجلس فوق مقعدٍ جلديٍّ، تضع ساقاً فوق الأخرى، ومن فمها تتدلى لفافة تبغ، الرماد المشتعل كان يتساقط من فوهة اللفافة فوق فخذي العارية دون أن تبدي أيّ تأثر. يداي كانتا مفرودتين على جانبيّ صدري، حاولت أن أحركهما ولكنني شعرت بألم شديد جعلني أتوقف عن المحاولة. التفتُ يميناً ويساراً، اكتشفتُ أن يديّ مكبلتان بأساورٍ حديديةٍ مثبتة في الحائط بمسامير صدئة. كانت أقدامي هي الأخرى مكبلة بنفس الطريقة، وكنت عارياً من ملابسِي. رفعتُ رأسي لأنظر للمرأة التي كانت تبتسم في هدوء. قالت وهي تنفث الدخان من فمها وأنفها:

- تشعر بالضعف، أليس كذلك؟

حاولتُ أن أتكلّم ولكن حنجرتي لم تستجب لي. اكتفيتُ بإيماءة من رأسي. اقتربتُ منّي، زفرتُ الدخان في وجهي ببطء ثم قالت:

- ما زلتَ تشعر بالعطش؟ أم أنك قد ارتويتَ؟

رفعتُ كرةً من عشب القمر أمام وجهها، قرّبتها من فمي ثم قالت:

- رجل يشعر بالظمأ وجد بئراً ممتلئةً بالمياه ولكنها - لسوء الحظ - كانت مغلقةً بغطاءٍ ثقيل. أضلاع مثلث الارتواء ثلاثة؛ الظمأ، الماء، والقوة.

حرّكتُ أنفها وهي تشمّ رائحة الهواء ثم قالت:

- أشمّ في أنفاسك رائحة العطش، نظراتك تقول إنني بئر ارتوائك. السؤال الأهم يا فارس: هل تمتلك القوة لكي ترفع الغطاء؟

دستُ كرة العشب في فمي بقوة، عادت بظهرها لتستند إلى المقعد الجلديّ، وضعت ساقاً فوق الأخرى وهي تنتظر لي بأعينٍ ممتلئةٍ بالنشوة. تدفقت القوة في عروقي، صرختُ بصوتٍ اهتزت له أعمدة القصر. انقبضت عضلات جسدي وانتفخت عروق رقبتني، أمسكتُ السلاسل المثبتة في الحائط وبدأتُ أجذبها بقوة وأنا أزارُ كأسدٍ نائر. بدأتُ قطع من الأحجار تتساقط فوق رأسي، والشقوق أخذت تتمدد وترسم لوحاتٍ فوق الجدار. جرحت الأصفاد يدي وسالت منها الدماء قطرةً تلو الأخرى. شعرتُ بقوةٍ تهن، وبدأ صوتي يهدأ، ولم يتغيّر وضعي؛ ما زلتُ مقيداً ومصلوباً إلى الحائط. كاد جسدي أن يسقط ولكن الأقبال أبقتني منتصباً، انتكس رأسي الذي كان يمطر عرقاً ودمماً فوق الأرض. كانت المرأة تضحك في استمتاعٍ شديد وكأنني أؤدي مشهداً فوق خشبة مسرح. صفقتُ بيديها في بروودٍ ثم قالت:

- لستَ فارساً، ولا شجاعاً، أنت مجرد رجل ليس إلا.

ألقت لفافة التبغ التي ارتطمت في صدري العاري ثم سقطت أمام قدمي، تصاعد منها خيط رفيع من الدخان، كان يحمل خليطاً من روائح فمها وقسوتها وخيبة ألمي. سمعت صوت الباب يغلق بقوة، انطفأت الشموع دون أن ينفخ فيها أحد. بقيت على حالي هذا، مكبل اليدين والقدمين، أبكي الماء وندماً، أشعر بخزي لا يكفي الموت لوأده. اشتعلت إحدى الشموع فجأة من تلقاء نفسها، انبعث منها ضوء خافت بدأ يزداد وهجه شيئاً فشيئاً. رأيت رجلاً عن يميني، كان عارياً ومصلوباً إلى الحائط مثلي تماماً، كان جسده ضخماً ولكن وجهه كان ممتلئاً بالتجاعيد والنتوءات وكأنه شاب قد طعن في السن فجأة. أخذت الشموع تشتعل واحدة تلو الأخرى لتكشف عن أغرب مشهد رأيت في حياتي؛ عشرات من الرجال، مصلوبون إلى الحوائط، ظهورهم مقوسة، ورءوسهم منكسة، وأجسادهم تتصبب عرقاً ملاً القصر برائحة ننتة. رفعت رأسي نحو السقف المزخرف، رأيت طيوراً غريبة تحوم حول نجفة عملاقة، طيور سوادها حالك، أعينها حمراء، ونظراتها جعلت الرعب يبدؤ في قلبي. أصدرت الطيور نعيماً مزعجاً طنت له أذني، فهمت من صوتها أنها غربان فزاد خوفاً أضعافاً. في ركن من القصر رأيت الكرسي الذي أجلسته المرأة فوقه، لم يكن ذهبياً، ولم يكن فخماً، كان مصنوعاً من الخشب، مغطى بالطين وشباك العناكب، وتبرز منه مسامير ملونة بطلاء أحمر، أو دماء من جلسوا فوقه. لم تكن هناك سلالم أمامه، كانت هناك جنتان لرجلين عاريين تهنتت ظهورهم من كثرة دهسها بأقدام الصاعدين إلى الملك الوهمي.

فتح الباب وظهرت المرأة الملعونة مرة أخرى. انتشرت رائحتها في المكان بمجرد ظهورها، رأيت الرجال المكبلين يشمونهم كأنهم كلاب مدربة تبحث عن آثار مخدر أدمنته أنوفهم. كانت تسير في ثقة، ويسير وراءها شاب يرتدي قميصاً أبيض، ينظر للمكان في ذهول وإعجاب، ويتحرك خلف ظلها في استسلام تام. أجلسته المرأة فوق المقعد الخشبي، أحدثت المسامير صوتاً مزعجاً وهي تخترق جسده دون أن تجفل عيناه، كان مسحوراً بنظراتها، مأخوذاً بكلماتها. أشارت لرجل كان يستبد بظهره لأحد الأعمدة المتسخة، كان جسده نحيلاً للغاية، سار نحوها بخطوات بطيئة وهو يحمل طبقاً ممتلئاً بالأقمار الصغيرة. كان لهذا الرجل أغرب وجه رأيت في حياتي، عيناه كانتا حمراوين، وفمه كان مغلقاً بقلل نحاسي ضخم، شفاه كانتا متدلّيتين من ثقل وزن القل. تناولت المرأة كرة من العشب بين إصبعيها ثم قرّبتها من فم هذا الشاب، تحدّثت معه بكلمات لم أسمعها، صرخت بأعلى صوتي:

- لا تأكل العشب! لا تأكل العشب.

خرج صوتي على شكل آهات مكتومة سمعها الرجل المكبل بجواري فنظر لي في شفقة ثم نكس رأسه في استسلام. رأيت الشاب يأكل العشب، رأيت يغمض عينيه في استمتاع، رأيت ينهض عن الكرسي في شموخ، رأيت يقفز فوق الأرض المتسخة ويسقط على وجهه، رأيت الدماء تندفع من جبهته، واللعب يسيل من فمه، رأيت ينتفض كالممسوس، رأيت يرتعش، يتأوه، يصفع الأرض ثم يلحس التراب، رأيت يرقد على يديه وركبتيه ومن رقبته تدلى حبل طرفه الآخر كان مستقرّاً في قبضة المرأة، رأيت يطرح الأرض الغرام قبل أن يرتمي فوقها؛ جسداً ملقى بلا حول ولا قوة.

أغمضتُ عينيَّ وفتحتهما لأجد المرأةَ الجذابةَ تقفُ أمامَ وجهي، كانت تتبعثُ من فمها رائحةَ كريهة، قالت في حَنَقٍ:

- هل تعرف ما هي أسهل خدعة في الدُّنيا؟

لم أَرِدْ ولم تنتظر مِنِّي ردًّا، أَرَدَفْتُ:

- أن تقنع رجلاً بأن الواقع مرير، وأن الخيال هو بوابة عبوره نحو الخلاص.

عادت خطوتين للوراء، أخذت تنتقلُ ببصرها بين الرجال المصلوبين وهي تقول:

- تبحثون عن جسدٍ لا يضعف، وقوةٍ لا تزول، ونشوةٍ لا تنتهي.

أشعلتُ لفافةً تبغِ سوداء ثم قالت وهي تنفث دخانها:

- تبحثون عن الكمال في غيركم حتى تخفوا وراءه عيوبكم، تتركون بيوتكم من أجل لحظاتٍ من المتعة، لحظاتٍ تنتهي قبل أن تبدأ، تضعون أقنعةَ الرجولة أمام من سلّمَنَ لكم قلوبهنَّ، ثم تركضون ورائي كأطفالٍ يبحثون عن الحلوى، تدخلون سجنِي بإرادتكم، وتكبّلون أيديكم بالأصفاذ حتى أَرْضَى عنكم.

نظرتُ لي بأعينٍ جامدةٍ ثم سألتني:

- هل عرفتَ مَنْ أنا يا فارس؟

وقفتُ أمام الشابِّ الملقى فوق الأرض، وضعتُ قدمها فوق وجهه ثم قالت في غرور:

- أنا الرغبةُ التي تمدُّكم بالقوّة قبل أن تنتزع أرواحكم وتترككم واهنين مكبّلين بأصفاذِ الضعف إلى حائطِ اليأس.

ركلتُ وجهه بقوّة ثم غادرت المكان، أغلق الباب وراءها وانطفأت كل الشموع.

مرّت أيامٌ لا أعرف لها عددًا وأنا في نفس المكان، ضعيف، مَسلوبُ القوّة، ومصلوب. فجأةً؛ سمعتُ صوت حرية يهمس في أذني:

- هل تستحقُّ هذه المرأة أن تتركني من أجلها؟

أخذتُ أهرُزُ رأسي كالمجنون وأنا أقول:

- لا، لا، لم أتركك يا حريّة، أنتِ من ...

قاطعتني في جدّة:

- دائماً تبرّر أفعالك بأوهام تقنع بها من يصدّقك، فلتبحثِ عن وهمٍ جديدٍ يا فارس تقنع به نفسك أنك لستَ مقيداً، لستَ عارياً، ولستَ ضعيفاً.

ناديتها كثيراً، صرختُ حتى انقطع صوتي، وبكيتُ حتى جفّت دموعي. أشعل أحدهم عود ثقابٍ أمام وجهي، أغمضتُ عيني لأتقادي وهَجَ ضوءه، ثم فتحتُ شباكاً ضيقاً رأيتُ عبره وجهاً لم أتوقع ظهوره هنا أبداً. رأيتُ أمي تبتسم، اختلطتُ سعادتي برويتها مع خلجي من جسدي العاري والمتسخ بالخطايا. لم تتطق أمي بكلمة، أمدّتي عيناها بطاقة جعلت الدماء تتدفق في شراييني. مدّت يدها بمفتاح نحو الأصفاد، أزالت الأكيال فصرتُ حرّاً من جديد. أعطتني قميصاً أخضر اللون، ارتديته، تحوّل لونه فوق جسدي للأزرق. طلبتُ منها أن تفكّ أسرَ الرجال المكبلين، أخبرتني أنها لا تمتلك إلا مفتاحاً واحداً، وأنه لا يستطيع أن يفتح سوى أقفالي. حاولتُ أن أجذب الأساور التي كانت متدلّية من يد أحد الرجال، أمرتني أمي أن أتوقف عما أفعله ثم قالت:

- هناك سجون أبوابها مغلقة من الداخل.

مضيتُ وراءها مهتدياً بالنور الذي كان ينبعث من جسدها. في طريقنا للخروج من القصر رأيتُ عشرات الرجال العراة، كانوا مكبلين، خائفين، صامتين، والدماء تنهمر من أفواههم وأعينهم كالأنهار. ما ظننته قصرًا اتضح أنه كان سجنًا، وقفت أمي أمام بوابته ثم التفتت لي وقالت:

- دوماً ما كنتَ تبحث عن الحرية يا فارس، الآن أنت حرٌّ.

نظرتُ لها في غير فهمٍ، وضعتُ يدها على خدي ثم قالت:

- اركض يا فارس، اركض يا صغيري.

جدِّي كان يقول: «الذاكرة رجلٌ عجوزٌ يعمل في مكتبةٍ عملاقة، تطلب منه كتابًا؛ يبحث عنه طويلًا، ثم يناولك كتابًا آخر».

هكذا كانت معاركي مع ذاكرتي اللعينة؛ أحاول أن أستعيد ورقةً من بين لفائفها، تفتح أمام عيني كتابًا تمنيتُ أن أنساه. لا أعرف؛ لماذا تتبخر لحظات السعادة من رأسي كنقطة ماءٍ في يومٍ مشمس، وتبقي لحظاتي الكئيبة كذبابيةٍ عبرت شرفتي وتأبى أن تغادر الحجرة؟!

مرّت أيامٌ وأيدي الحزن تجذبني كل لحظةٍ نحو ظلامه، ولا أقوى عليّ مقاومتها. وأيامٌ أخرى لم أحاول حتى أن أقوم. أستيقظ عندما يبدأ ضوء الصُّبح في البروغ، أظل واقفًا خلف النافذة، أراقب الناس، الطيور، المراكب، أسرح في أشعة الشمس وهي تصطدم بالأمواج، أستمع لضجيج الطيور التي تهبط من سماءها حتى تلامس سطح الماء، أنتظر أن يأتي الليل ليحرّرني من سجون أفكارني، أغوص في نوم منقطع تهاجمني خلاله أسوأ الكوابيس وأكثرها سوادًا. يزورني أبي في حجرتي وهو يضع قناع الأبتسامَةِ فوق وجهه، يحاول بكلماتٍ معدوداتٍ أن يبيث في روعي الحياة، يدفع بيديه المرتعشتين ستائر الحزن التي خيمت فوق رأسي، تؤلمه رؤيتي حزينًا مهمومًا وتسكب نظراتي مرارةً في إناءِ كآبته الممتلئ عن آخره.

هل قابلت إنسانًا من قبل جعلتك عيناه تبتسم رغم أحزانك، وشعرت وأنت تنظر إليه أن غيوم الكآبة تتقشع، والقمر يزداد ضياءً، والبحر يهدأ، وينابيع الأمل تتفجّر في وجهك وتمحو مياهها النقيّة آثار اليأس؟

لم أجرب هذه الأحاسيس قبل أن ألتقي بتلك الفتاة. رأيتها من النافذة في منتصف نهار أحد الأيام. كانت تحمل صينيةً نحاسيةً بكلتا يديها، فوقها تراصت قطع حلوى ملوّنة، وحولها تجمّع الأطفال من كل حدبٍ وصوب. يمدّون لها أيديهم الصغيرة، يقفزون أمامها في نشاط، تملأ كفوفهم الدقيقة بالحلوى، يجلسون فوق الرمال ليأكلوها في نهم. كانت بيضاء كالقمر إذا رضي عمّن ينظر إليه، شعرها كان قصيرًا، تنعكس أشعة الشمس عليه فتعطي لخصلاته بريقًا لامعًا. كانت المسافة بعيدةً بين نافذة غرفتي وبينها. هرعتُ فوق السلالم كطفلٍ يحتفل برجوع أبيه من السفر. جلست فوق صخرتي المفضلة، رأيتُ عينيها الخضراوين، ذبّت فيهما عشقًا، شعرتُ بالسماء تمطر فوق رأسي نقاؤلاً، وحبًا للحياة. كانت ترتدي فستانًا أحمر اللون، وتضع خلف أذنها وردةً حمراء، مشيتها فيها عرجة لاحظتها، أحببتها، أدمنتها، وعشقت أنها لم تحاول إخفاءها. الهواء كان يغطي عينيها بشعرها، تدفع خصلاتها بأصابعها، وتدفيها خلف وردة أذنها. كلما كانت تضحك؛ كانت الدموع تظفر من عينيها. التقت عينانا للحظةٍ توقف عندها الزمن. أخبرتني نظرتها أنها تعرفني، وأخبرتني عيني أنني أحببتها.

غادرتُ غرفتي لأول مرة منذ أيام لا أعرف لها عدداً، وانطلقتُ بمركبي الذي ملّ من هجري له.
ألقيتُ شباكي وجلستُ على حافةِ المركب أراقب فتاتي التي همتُ بها عشقاً. قطع حبال خيالاتي
صوتٌ غليظ يقول:

- هل تعرف عدد حجرات القلب؟

التفتُ لمصدر الصوت، كان ذلك الشاب المفتول العضلات المفتوح القميص الذي التقطتُ شباكه
صندوقاً ذهبياً أمامي منذ فترة. قلتُ له في برود:

- قرأتُ في أحد الكتب أن القلب به أربع حجرات.

قال في ثقة:

- ضع امرأةً في كل حجرة، وتقلّ بين الحجرات، سيصرفنّ عنك الملل، ويتأفسنّ فيما بينهن على
إرضائك وإسعادك.

قلتُ له في خبيث:

- يبدو أنك تكره النساء.

ضحك قائلاً:

- النساء يجلبنّ وجه الرأس مع قدمهن، يتطاير من أفواههن رذاذ الهمّ والقلق، إرضاء النساء هي
أسهل مهمةٍ مستحيلة في الدنيا.

ضحكتُ على طريقة حركة جسده الضخم مع كلماته، شعرتُ تجاهه براحةٍ، صمتُ لحظاتٍ متردداً
قبل أن أسأله:

- هل تعرف شيئاً عن عشبة القمر؟

نظر لي في ربيبةٍ ثم قال بدهشة:

- أعرف شيئاً؟ لقد قرأتُ كل الكتب التي تتحدّث عن الأعشاب، أنا أدرس أنواع الأعشاب منذ أن
كان قميصي أحمر اللون.

سألته مجدداً:

- ماذا عن عشبة القمر؟

اعتدل في جلسته ثم قال:

- نوع من الأعشاب الشيطانية النادرة، هناك رجال أفنوا حياتهم في البحث عنها، ورجالٌ آخرون تدمرت مراكبهم بسبب هذه العشبة.

أسقطتني كلماته في محيطٍ من الدهشة، لذتُ بالصمت فقطعةً متسائلاً:

- هل لديك كتاب يتحدث عن عشبة القمر؟

أجبتة على الفور:

- لا، لم أقرأ عنها في الكتب.

ابتلغتُ ريقِي الجافَ ثم أتبعته:

- لقد تناولتُ هذه العشبة.

أطلق شهقةً عاليةً، جحظتُ عيناه وهو يقول:

- تقصد حلمتَ بأنك تناولتها.

قلتُ له في ثقة:

- لم يكن حلمًا، كانت حقيقةً كحقيقة وجودي أمامك الآن.

طلبَ مِنِّي أن أقصَّ عليه ما حدث، شبك ذراعيه فوق صدره وجلس منتبهًا كطفلٍ ينتظر قصة ما قبل النوم. حكيتُ له كل ما حدث بالتفصيل منذ أن قابلتُ المرأة الجذابة وحتى حررتني أمي من سجنها. ظل صامتًا يلتهمني بنظراته ثم قال فجأةً:

- بماذا شعرتَ عندما أرسل لي البحر صندوقًا ذهبيًا أمامك؟

تفاجأتُ بسؤاله ولكني أجبتة بصراحة:

- بالجد.

ابتسم وقال:

- هذا هو نفس شعوري الآن.

كانت الشمس على وشك المغيب، عشرات الغربان كانت متراصّة فوق المراكب المهجورة وكأنها كانت تراقبنا، وتستمع لما نقوله. مدّ يده لي وهو يقول:

- أنا خالد.

صافحته وعرفته بنفسه ثم سألته عن سرّ هذا العشب. قال وهو يتنأب:

- قرأت في أحد الكتب عبارة لم أنسها أبداً: «الإنسان مستعدٌ لفعل أيّ شيءٍ والتضحية بكلّ شيءٍ في مقابل تحقيق ذاته».

قلت له متخابثاً:

- جدّي كان يقول: «الإنسان لا يقول ما يريده دفعةً واحدة أبداً».

انفجر ضاحكاً ثم قال والابتسامة تغطي وجهه:

- سأخبرك يا فارس بما أعرفه عن عشبة القمر.

وضع لفافة تبغ في فمه وناولني واحدةً، أشعل لفافته بعود ثقاب، مدّ يده ليشعل لفافتي ثم قال وهو ينفث الدخان في عود الثقاب ليطفئه:

- كل إنسان لديه حقيبة في رأسه يضع فيها أحلامه وأمنيّاته، سفينة الحياة تمضي بسرعة، وألوان قمصاننا تتبدّل في لمح البصر، وتظلّ أحلامنا تتراكم في حقائبها حتى تمتلئ. عندما كانت قمصاننا خضراء كنّا نعتقد أنّ أحلامنا ستتحقّق، وبعدما أصبحت قمصاننا حمراء راودتْنا الشكوك حول الأحلام وبدأنا نتساءل: «كيف سنحقّقها؟» وعندما أصبحت قمصاننا بيضاء فهمنا أنّ تحقيقها صعب للغاية، ثم أصبحت قمصاننا زرقاء. مع تبدّل ألوان قمصاننا؛ نضجت عقولنا، وأدركنا أنّ الحياة لا تعطي شيئاً بالمجان. ناشدنا القمر، توسّلنا إلى البحر، وألقينا شباكنا على أمل أن تعود وهي تحمل لنا السعادة، ثم أدركنا أنّ الحظّ مشغولٌ بتلبية أحلام أصحاب المراكب الذهبية والقصور. جففنا دموعنا بأيدينا، ألقينا أحلامنا في غرفةٍ مظلمةٍ داخل عقولنا، سكرنا أبوابها بأقفالٍ أخذت تصدأ مع تغيّر ألوان القمصان، ألقينا أنفسنا بأننا نسينا أحلامنا، ولكنها لم تنسنا. ظلّت تتسلل من بين شقوق الجدران لتزور أحلامنا كل ليلة بعدما نغلق أعيننا هروباً من واقعنا الذي لم نحقق فيه نصف ما تمنّيناه.

سحب نفساً عميقاً من لفافته ثم أردف:

- في عالم بعيدٍ؛ كان هناك ساحرٍ يتمني أن يصير ملكاً، زرع هذا الساحر عشبةً كان يسقيها بالدماء، ويقرأ عليها تعاويذٍ سجّلها سحرة قدماء في أوراقٍ دفنوها في باطن الأرض. ذات يوم وجدّ حديقة منزله مشتعلة، حاول أن يطفئها بالماء ثم التراب، ولكنه كان يزيدُها اشتعالاً. وفجأة؛ انطفت النيران

من تلقاء نفسها، وظهرت كراتٌ من العشب؛ بيضاء اللون، لها بريق جذاب، وصفها الساحر في كتابه بأنها أقمارٌ صغيرة. أجرى الساحر على عشب القمر عشرات التجارب، وسجّل نتائجها في كتاب أصبح مطمعًا لكافة الرجال والنساء. علم الساحر ذات يوم – بطريقته الخاصة – أنّ الملك قد أرسل جيشًا هائلًا للقبض عليه وسرقة العشب والكتاب، وضع الساحر ما تبقى من الأعشاب في صناديق صغيرة، ووضع الكتاب في صندوقٍ مثلهم ثم ألقى بالصناديق في البحر. هناك كتب تقول إنهم أعدموا هذا الساحر بالدفن في حفرة عميقة وهو على قيد الحياة، وكتب أخرى تؤكد أنه هرب من الحفرة وأصبح ملكًا للبلاد.

تكررتُ مليًا فيما قاله ثم سألته ببلاهة:

- وما علاقة هذه القصة بالأحلام والأمنيات؟

قال مبتسمًا في ثقة:

- هذا الساحر توصل لطريقة تحقق بها كافة أحلامك في غمضة عينٍ يا فارس.

قلتُ وكأنني أفكر بصوتٍ مرتفع:

- وهذه الطريقة لكي تتحقق لا بدّ أن تمتلك الكتاب وعشبة القمر، صحيح؟

هزّ رأسه بالإيجاب. سألته في لهفة:

- هل كتاب الساحر معك؟

سكتَ يفكر قليلًا ثم رمقني بنظرة طويلة وقال:

- نعم.

سحب نفسًا عميقًا من لفافته ثم أتبع:

- أبحث عن عشب القمر منذ أن كان قميصي أحمر اللون، ولم أعثر عليها أبدًا.

أخبرته أن المرأة الجذابة كانت تمتلك كمية هائلة من العشب البيضاء اللامعة، فكرتُ في الأمر من شتى جوانبه، حاولت أن أصف له عنوان سجنها في مدينة الظلام ولكني تذكرتُ أن خريطة المدينة تختلف من شخص لآخر، وأنه لن يلتقي بها أبدًا مهما حدث. بدأت زخات خفيفة من المطر تتساقط من بعض السحب، ومعها تساقطت الأفكار فوق رأسي. قلتُ له في تردد:

- اسمع يا خالد، سأحاول أن أعود لهذه المرأة وأحصل منها على العشبة، ولو وصل الأمر لأن أسرقها؛ سأسرقها. ولكن؛ هل تُعدني إذا حصلتُ عليها أن تساعدني على الوصول لأحلامي؟

تهلَّلت أساريه، وتراقصت السعادة في عينيه، أقسم بحياته أنني لو جلبت له العشب سيشاركني كافة أسرار الساحر، تعاهدنا على ذلك وتصافحنا قبل أن يعود كل منا لمنزله ونحن مثقلين بالأمنيات، ومنتشيين بالتفاؤل.

دأبت رمال الشاطئ أقدامي الحافية، ووَخَزَنِي الخوف في صدري بنصلٍ سيكِّينه الحاد. تذكرتُ المرارة التي شربتها من يد المرأة، وعينها اللتين كان ينبعث منهما شرٌّ مستطير. اخترق أذني صوت جدِّي وهو يقول: «مهما كانت الأشياء صعبة، هي ليست مستحيلة».

ظهرت أمام عيني صورة الفتاة التي رأيتها على الشاطئ فهبطت السكينة إلى قلبي، وشعرت بأنني قادرٌ على فعل ما لا يستطيع أن يفعله أحد.

هل شعرت من قبل أنك تقف أمام مشهدٍ مكرَّر؟ أو خضت كابوسًا مزعجًا وبعدها استيقظت منه وشربت كوبًا من الماء المتلج وارتديت ملابسك وتناولت إفطارك اكتشفت أن ما رأيت في الكابوس يعاد أمام عينيك من البداية؟

وقفت مذهولاً على بعد خطواتٍ من المنزل عندما رأيت أبي يقف بجوار مكتبة الكتب العملاقة أمام البوابة. كان يرتدي نفس القميص، يداعب الكلبُ أقدامه بنفس الطريقة، ينظر للناس بذات النظرات الزائغة، والكتب متراسة فوق رفوف المكتبة بنفس الترتيب. نظرت للسماء فوجدت السحب الحمراء تطل علينا، نفس اللوحة التي كانت مرسومةً في حلمي بنفس الفرشاة ودرجات الألوان. تأكدت أن المشهد يعاد عندما رأيتها تخرج من البوابة. المرأة الجميلة التي كانت ترتدي نفس الفستان الرمادي، تحمل فوق كتفها نفس الحقيبة، وتضع حول عنقها نفس الوشاح الأسود. كل الأحداث كانت تتكرَّر بأدق تفاصيلها. الكلب ينبح، وتداعبه. تخرج كأسها وزجاجتها وتصبُّ السائل الأحمر، يدفعه أبي إلى جوفه دون اعتراض.

صرخت بأعلى صوتي، التفت الجميع في اتجاهي إلا هما. أمسكت المرأة يدَ أبي ثم دلفا معاً في الشارع المؤدي لمدينة الظلام. سار خلفهما الكلب، منكس الرأس وصامتاً. التفتت المرأة ونظرت للكلب نظرةً واحدة أقدته في مكانه. بدأ المطر يهطل ثم تحوّلت المياه لثلوج ثقيلة أخذت ترتطم في رأسي بقوة وكأنها أحجار مدببة. اختبأت من المطر أسفل شجرة، وأخذت أنتقل من شجرة لأخري وأنا أنتبّع أبي والمرأة وهما يمضيان في طريقهما بخطواتٍ ثابتة.

توقف أبي والمرأة أمام بوابة مدينة الظلام المغلقة، اقتربت منهما في خوفٍ وفجأة التفتت المرأة ونظرت في وجهي. كانت عيناها هما أكثر عينين مرعبتين رأيتها في حياتي. لم يكن فيهما شيءٌ مخيف، ولكن؛ نظراتها كانت مرعبة، وكأنها تخترق جسدي وتتفد لقلبي، أو أن لديها قدرة غريبة

على قراءة ما في الصدور. أبعدتُ عينيَّ عن عينها الثاقبة بصعوبةٍ. عادت الأمطار لعهدِها القديم؛
قطرات خفيفة لا تؤذي رأسًا ولا تجرح يدًا. سألتُ أبي في دهشة:

- إلى أين أنت ذاهب يا عمُّ أيُّوب؟

سكت قليلاً ثم قال في تردُّد وهو ينظر للأرض:

- سأنتقل لمدينة الظلام.

اقتربتُ منه وأنا لا زلت أشعر بالخوف من المرأة الواقفة بجواره، همستُ بصوتٍ خفيض:

- ستترك بيت الشاطيء؟

اغرورقت عيناه وهو يقول:

- انتهت مدَّة الإيجار، لا بدَّ أن أبحث عن بيتٍ جديد.

وضعتُ يدي على كتفه، قلت له لأطمئنَّه:

- لا تقلق يا عمُّ أيُّوب، سأكثر من الإبحار في الأيام القادمة وسأتكفلُ أنا بكلِّ شيء.

نظرت لي المرأة بسخرية واضحة، عدت أنظر لأبي وأنا أحاول أن أخفي رجفة يدي:

- لا تحمل همَّ إيجار أو طعام أو ...

قاطعني في حدَّة:

- لم أعد أحتمل الحياة في بيت الشاطيء يا فارس.

خرجت الكلمات من بين أسناني وكأنني أحدث نفسي:

- لا أفهم؛ لماذا أصبحتم - جميعًا - تكرهون بيت الشاطيء؟ ما الذي يجذب الناس في مدينة الظلام؟

جلس أبي فوق الرصيف أمام البوابة المغلقة ثم قال هامسًا:

- لم أعد قادرًا على تحمُّل رائحة البحر، أشعر طوال الوقت باختناق كأن حجرًا يجثم على صدري،
لا أكره الشاطيء يا فارس، قضيتُ فيه أجمل أيام حياتي، كل ما في الأمر أنني في حاجةٍ لبعض
الراحة والهدوء.

جلستُ بجواره فوق الرصيف، وضعتُ يدي فوق يده المرتعشة وسألته:

- لماذا لم تتحدّثْ معي عمّا تشعر به يا عم أيوب؟

نظر لي بأعينٍ مكسورة وقال في أسّى واضح:

- اهتمامك بجروح الناس لن يضمّد جروحك يا صغيري، جميعنا جنودٌ في معركة لا يخرج منها محاربٌ بدون إصابات.

سكتَ قليلاً ثم أتبع مبتسماً:

- سأكون بخيرٍ في مدينة الظلام يا فارس.

نظر للمرأة التي كانت تتحدّثْ مع حارس البوابة، سألتها:

- أليس كذلك؟

أجابت دون أن تلتفتَ لنا:

- لا أستطيع أن أعدك بذلك يا أيوب.

قلتُ لأبي في إصرار:

- إذا كنت تريد الرحيل لمدينة الظلام؛ سأرحل معك، نعيش من جديد أنا وأنت وأمي حتى ولو سمنكت في بيت جدّي حكيم الضيق.

قال بصوتٍ مرتفعٍ في عصبية:

- لا يا فارس، منزل الشاطئ هو المكان الوحيد الذي يصلح لك، صدقني.

التفتت لنا المرأة صاحبة الوشاح الأسود ثم قالت في برود:

- الحياة في مدينة الظلام أكثر هدوءاً من الشاطئ ولكن؛ الانتقال لها ليس أمراً بسيطاً.

زادت كلماتها الغامضة من الخوف الرابض في أعماقي. سألت أبي وأنا على حافة البكاء:

- هل أصبحت ثقيلاً عليك يا عم أيوب؟

وضع أبي يده على خديّ ثم قال وعيناه تغرقان قميصه الرماديّ بالدموع:

- لا يوجد في حياتي من هو أعلى وأهم منك يا فارس.

ارتدى أبي في حضني، كان جسده يهتز بقوة من فرط بكائه. كانت هذه هي أول مرة أرى أبي فيها يبكي أمامي. نظرت لنا المرأة في فروع صبرٍ وقالت:

- ليس لدي وقت لهذه المشاعر يا أيوب، عد الآن مع ابنك وسأمرُ عليك لاحقاً.

مع نهاية جملتها الأخيرة انفتحت بوابة المدينة، دلفت داخلها ثم التفتت لنا وقالت:

- في المرة القادمة لا تحضر معك كتبك، لا يمكن القراءة في الظلام، ولا يوجد هنا متسع لمقتنياتك.

رأيتها تسير بصحبة رجلٍ طويلٍ لم أتبيّن ملامحه ثم ابتلعهما الظلام. في الطريق إلى الشاطئ سألتُ أبي:

- من هذه المرأة؟

قال بصوتٍ مختنق:

- إحدى سماسرة الظلام.

غرقنا في الصمت حتى وصلنا للمنزل. ساعدتُ أبي في استبدال قميصه ببيجامة البيت، حاولتُ أن أقنعه أن ينام في غرفة النوم ولكنه رفض بشدة. عرضتُ عليه أن ينام على سريري فوافق دون تردد. غطى جسده حتى رقبته ثم راح يغط في نوم عميق، بدا لي كأنه طفل صغير أنهكه اللعب واستسلم للنوم فور أن لمس وجهه حضن أمه.

غطيت المصباح فانطفأ نوره. خلعتُ ملابسي، تركتُ المياه تتساب فوق جسدي، شعرتُ ببرودتها تسري في عظامي. خرجتُ من الحمام نظيفاً من الخارج ومتسحاً بالهموم من الداخل. دخلتُ غرفة أبي وأمي، حملتُ عباءة أمي الملقاة فوق السرير، شممتُ فيها رائحتها التي حفظتها الغرفة بين ثنايا جدرانها ثم أخذتُ تسعلها في وجهنا منذ أن رحلت. أطفأتُ النور، اندسستُ في فراش أمي، ضمنتُ ذراعي حول جسدي وأنا أستعيد وجهها وهي تبتسم لي وتعدني بأن كل الأمور ستكون بخير. سمعتُ صوتٍ شيءٍ يحتك بالنافذة المطلة على مدينة الظلام، وعندما فتحتُ النافذة؛ رأيتُ غراباً.

حكى لي جدِّي ذات يوم عن رجل غير العالم بعدما سقطت تفاحة فوق رأسه. سألته عما حدث بعد سقوطها، وأجابني بكلماتٍ لم أفهم منها حرفاً واحداً. رحت أتخيّل منظر التفاحة وهي تسقط فوق رأس رجلٍ جالسٍ تحت ظلِّ شجرة، فكّرت في أنّ التفاحة قد أعادت له ذاكرته المفقودة، أو جعلته يكتسب قدرةً خارقةً، أو زرع اصطدامها برأسه أفكاراً لم يعرف عنها الإنسان شيئاً من قبل.

بسبب كثرة قصص جدِّي؛ قسّمها عقلي لأصناف مختلفة؛ بعضها وضعت أوراقه في درج القصص الواقعيّة، وبعضها فوق رفوف القصص الخياليّة، ومعظمها بخّرته شمسُ الأيام.

لم أكن أبداً من المؤمنين بالصدف، ولكن ما حدث في ذلك اليوم كان كافياً لكي أغيّر نظرتي للأمر. كنت جالساً فوق سطح مركبي بعدما ألقيتُ الشباك وأنا أمل في أن يرسل البحر لي شيئاً ذا قيمة. اخترق صوت العجوز الذي يدعونه «جالب الخير» أذني وهو يهتف بصوته الجهوري:

- أيها الصيادون، البحر ملعون. تعطيه أغلى ممتلكاتك، تزدهر حياتك. من يتردّد ويبخل، لا يطلب، لا يسأل.

من بعيدٍ رأيتُ مركبه قادمًا من عند القمر. يقف في مقدمته الشابُّ العاري الصدر، ويجلس خلفه هذا العجوز ذو الجلد المنكمش والعينين الغائرتين. يدفع المجاديف في نشاطٍ كعادته، يزار بصوته الغليظ، والناس يتسابقون علي إعطائه أغلى ممتلكاتهم. رأيتُ - وسط الجمع الهائل - ثلاثة نساءٍ يحدقن فيّ بعيونٍ لها سحرٌ جذاب، كان جمالهنّ من النوع الذي يرغم عينيك على النظر، ويطيّر من رأسك الأفكار. رأيتهنّ يخلعن حليهنّ وخواتمهنّ ويلقن بها فوق مركب العجوز. سمعته يعدهن بأن القمر سيضيء لهنّ الطرق التي أظلمت في وجوههن، وأن ما أنهكنّ البحث عنه سيأتي إليهنّ سعيًا. شجّعنتي كلماته، خلعتُ السلسلة التي صنعتها لي حريةً ولم تفارق رقبتني منذ أن وضعنها حولها بيديها الرقيقة. تراجعتُ بعد ذلك عن الفكرة، أعدتها لمكانها ثم قلتُ لنفسني «إن حريةً ورقة سوداء في دفتر أبيض ولا بد من تمزيقها». خلعتُ السلسلة من جديد، وضعتها فوق كفّ يدي، نظرتُ لها باستياء، سألتها: «كيف هنتُ على حرية هكذا؟». سمعتُ صوتاً يهمس في أذني: «مثلما هانتُ عليك».

عدت ليوم كنتُ أجلس فيه بجوارها؛ فوق صخرتي المفضلة، كانت البرودة قاتلةً، والأمطار غزيرةً، والرياح قويّة. قالت لي وهي ترتجف من البرد:

- لقد تعبتُ من طول انتظاري ليومٍ يجمعنا فيه بيتٌ واحدٌ.

ضممتها لصدري ثم قلتُ لها:

- لكل انتظارٍ نهايةٍ يا حرية .

لو كان أحدهم قال لي في هذه اللحظة إن حرية ستزوّج رجلاً غيري، وأني سأقع في غرام امرأةٍ غيرها؛ لظننتُ أنه سكران، ولكن؛ كما كان جدّي يقول: «الأيام مزارع مجنون يستطيع أن ينيبَ عنباً فوق شجرة ليمون».

بدون تفكير؛ أعدتُ السلسلة لمكانها. كانت هذه السلسلة هي آخر حبل متبقٍ يربطني بحرية، ولم أكن مستعداً لقطعه بعدُ.

شعرتُ بقلقٍ يمور في صدري، التفتُ لأجد «جالب الخير» يقف أمام مركبي، نظر لي بطريقةٍ فجّرت بداخلي براكينَ الخوف. أخذتُ أتقلُّ بعيني بين جوانب المركب بحثاً عن أي شيءٍ أملاً به عين هذا العجوز. استقرتُ عيني في النهاية على الصندوق الخشبي المتهاك الذي التقطته شبّكي من البحر منذ أيام. تناولتُ الصندوق وأنا أعرف أنه ممتلئ بالأوساخ، وأن «جالب الخير» سيوبّخي بكلماته المتجانسة مرّةً أخرى، ولكني لم أجد حلاً آخر، وأردتُ هذه المرة أن أعطيه شيئاً، حتى لو كان صندوقاً ليس له قيمة.

جدّي قال إن رجلاً قد غيرَ العالم عندما سقطت فوق رأسه تفاحة، وأنا تغيّرت حياتي عندما تعثّرت أقدامي في مجداف المركب. سقطتُ على وجهي، سمعتُ ضحكات النساء اللاتي كنّ يسخرن مني، احمرّ وجهي خجلاً، تمنيتُ أن ينشقّ البحر ويبلعني؛ ولكنه لم ينشق؛ وتهلّلت أساريري لأنه لم ينشق.

تكسّر الصندوق وتفتّت إلى قطع من الأخشاب الصغيرة تناثرت في كافة أرجاء المركب، قفزت الأوساخ والطحالب من الداخل لتستقرّ أمام وجهي مباشرةً، وهنا؛ رأيتُ ما لم أتوقّع أن أراه. كان جدّي يقول: «أنت منحوس يا فارس».

لو كان معي في هذه اللحظة لأدرك أنني أكثر الرجال حظاً.

كانتا كعينيّن تطلّان من وراء ستائر ممزقة، من بين الطحالب والأوساخ لمعَ بريقهما، وارتسمت الابتسامة على وجهي في بلاهة. كانت هذه هي أول مرة أشعر فيها أن البحر يقدرني، ويحبني. وكيف لا يحبني وقد أرسل لي كرتين من عشبة القمر التي يحلم بها الملوك، ويفني الرجال أعمارهم في البحث عنها!

لا أعرف؛ هل اقتربتُ منهما بوجهي، أم اقتربا مني بوجههما الذي يشبه القمر. رائحتهما المنعشة ملأت أنفي، واستعادت وجه المرأة الجذابة من لفائف ذاكرتي. شعرتُ برغبةٍ عارمةٍ في أن أتذوق العشب، وأن أجرب هذا الشعور مرةً أخرى. أعادني صوته المزعج من بحور خيالاتي، التفتُ له وأنا ما زلتُ منكفئاً على وجهي، حدّق فيّ بعينين جامدتين، اعتدلّت بصعوبة، نهضت وأنا أشعر بدوارٍ شديدٍ، مررتُ بأصابعي على جبھتي لأمسح خيطَ الدماء الذي سال من جرح ناتجٍ عن ارتطام رأسي بسطح المركب. قال العجوز كأنه يحذرني:

- من يتردد ويبخل ...

قاطعته في شجاعة لم أتوقعها:

- نعم، بالتأكيد، لا يطلب ولا يسأل.

احمرَّ وجهه من شدة الغضب، استدار بالمركب ثم دفع المجاديف بقوة فانطلق مبتعدًا. انحنيتُ على ركبتَيَّ، اقتربت بوجهي من كرسي العشب اللامعتين. داعبتهما بأناملي كأنهما حيواناتي الأليفة. حملتهما بين أصابعي برفقٍ ثم وضعتهما فوق كفَّ يدي، أخذت أتأملهما في سعادة. شعرتُ بورود الآمال تتفتح في حدائق قلبي، وبأن القدر يعوّضني عن كل لحظات الضعف التي مررتُ بها في حياتي. فجأة سمعت صوتًا غليظًا يقول:

- ماذا تفعل أيها المجنون؟

قبضتُ على كرسي العشب وأنا ألتفت لمصدر الصوت، كان رجلًا عجوزًا له أنف طويل شامخ ولحية قصيرة، كان يرتدي قميصًا رماديًا باليًا، ويتقرّس في وجهي بدهشة. نظرت له دون أن أنبس، قال معاتبًا:

- تسخر من «جالب الخير»، ترفض إعطائه أعلى ما تملك، والآن؛ تتحدّث مع النمل!

قهقهتُ طويلًا ثم قلتُ له في خبث:

- نعم يا سيدي، أحب أن أستمع لقصص النمل من أنٍ لآخر، هل جرّبت هذا الأمر من قبل؟

قال العجوز وهو يضرب كفًا على كفّ:

- يا لك من مجنون!

سألته:

- ماذا عنك؟ هل أعطيت جالب الخير شيئًا؟

قال دون تردّد:

- أعطيته أعلى ممتلكاتي، لا يرسل البحر خيرًا إلا إذا ضحيتُ بأعلى ما تملك.

قلت له وكأنني أتحدّث مع نفسي:

- دُعني أستوضح الأمر؛ يرسل لك البحر أشياء يمكنك أن تستخدمها لتصلح مركبك وتبتاع ملابس وطعامًا، وترتقي بحياتك، ولكنك تعطيتها لهذا العجوز حتى يرسل لك البحر أشياء أخرى؛ فتعطيها له من جديد!

ارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة، سألته:

- هل أرسل لك البحر هذا الشيء الذي تعطيه أغلى ممتلكاتك في سبيل الحصول عليه؟

حدّق العجوز في وجهي باهتمام ثم قال:

- عندما كان قميصي أزرق مثل قميصك؛ سألت نفسي؛ لماذا أضحى بما سعيتُ للحصول عليه؟ قضيتُ آلاف الليالي وأنا أحارب أفكار المتضاربة ورغباتي التي كانت تتبدّل كل يوم. بعدما أصبح قميصي رماديًا؛ أدركتُ أن هناك أسئلة لا يجب أن نسألها، وأشياء ينبغي ألا نفكر فيها، وقواعد لا يمكن - مهما فعلنا - أن نغيرها.

بدالي غير مقتنع بالكلمات التي خرجت من فمه، سألته باهتمام:

- إذا كنت قد ضحيت بكل ما حصلت عليه، عن ماذا تبحث الآن يا سيدي؟

مدّ يده إلى البحر، أخذ يداعب الموج بأصابعه وهو يقول:

- ما أبحث عنه الآن لا يمكن للبحر أن يرسله.

ألقيت نظرة خاطفة على العشب الذي كان وهجه منبعثًا من بين أصابعي، قلت له:

- وهل هناك ما لا يستطيع أن يرسله البحر؟

قال العجوز وأصابعه ترتجف بقوة:

- نعم، لا يمكن للبحر أن يعيد لقميصك لونه السابق، لا يمكن له أن يرسل لك ما ضاع من عمرك.

أخذ العجوز يسعل بقوة ثم قال بصوتٍ محشرج:

- أتمنى أن يعود قميصي أزرق مثل قميصك، حتى لو ستصبح ملامحي أكثر قبجًا، ورأسي أقل ذكاءً، ونظري أقل حدةً، وجيبي أكثر فقرًا. أريد أن أعود شابًا مثلك، حتى لو سأخالف القواعد التي ينبغي ألا أخالفها، حتى لو سأمطر الناس بالشتائم، وألقي ملابسني في البحر، وأراقب جيوش النمل.

أنهى العجوز كلماته ثم حرك دفّة مركبه ببطء، وقفتُ أحدق فيه وهو يبتعد حتى ابتلع الضباب.

هل أخبرتك من قبل أن المراكب نادراً ما يحركها أصحابها؟

أرجو أن تعذرنى على نسياني المستمر، لم تعد ذاكرتي أهلاً للثقة.

لم أنسَ أبداً ذلك اليوم الذي قطعْتُ فيه مسافةً هائلةً وأنا أبحث عن خالد لكي أخبره بأنني حصلتُ على عشب القمر، وأنَّ ينابيع المغامرة قد تفجّرت بداخلي، وأصبحتُ على أتمّ الاستعداد لرحلة البحث عن أحلامي الضائعة.

التقطتُه عيناى من بين عشرات الرجال، كان جالساً فوق مركبه بقميصه المفتوح الأزرار وشعره الطويل وعضلاته المفتولة. استقبلني بابتسامةٍ تتمُّ عن سعادةٍ حقيقية. قال ساخراً:

- هذه أول مرة أراك فيها سعيداً، هل سقط قناع البؤس الذي كان يخفي وجهك؟

ضحكتُ وقالت له:

- إذا أخبرتك بما حدث ستعرف لماذا أنا سعيد هكذا.

قال خالد مبتسماً:

- أخبرني إذاً.

رويْتُ له القصة بحذافيرها. نظرَ لي بذهولٍ ثم طلب مني أن أريه العشب. ترددتُ قليلاً قبل أن أخرج من جيبي، تناولتُ كرة عشب بين أصابعي ثم رفعتها أمام وجهي، اتسعت عيناها، تدلَّى فكّه، ولم ينطق بكلمة. وضعت الكرتين في علبة التبغ الحديدية ثم دسستها في جيبي. انتظرتُه حتى استفاق من ذهوله وقال:

- ماذا فعل «جالب الخير» عندما رأى العشب؟

قلت له في ثقةٍ:

- لم يره.

قال خالد:

- هذا الرجل يمتلك عينين ثاقبتين يرى بهما عبر الأشياء، وأذنين خارقتين تسمعان طنين البعوض، هل تعتقد أنه لم يره شيئاً لامعاً كهذا؟

غطت رأسي سحابةً من القلق، سألته:

- وما العمل الآن؟

فكّر قليلاً ثم قال:

- نسرع باستخدام العشب قبل أن يدبّر لنا العجوز مقلّباً.

أطلت النظر لوجهه ثم سألته في صراحة:

- وما الذي يجعلني أثق بك؟

ابتسم وكأنه كان ينتظر هذا السؤال ثم قال:

- لديك كرتين من عشب القمر، كلُّ واحدٍ مِنّا يحتاج كرةً واحدةً فقط. لقد ائتمنتك على سرّي الأكبر وهذا سببٌ كافٍ لكي تثق بي، ثم إن هناك سبباً أكبر وأقوى وأكثر إقناعاً.

نظرتُ له مستفهِماً، كوّر قبضته ورفعها في وجهي ثم قال:

- يمكنني أن أقفز فوق مركبك الآن وأقضي عليك بلكمةٍ واحدة ثم أنتزع من جيبك العشب وأنصرف.

تلوّن وجهي وارتجفتُ أطرافي وأنا أسأله:

- وما الذي يمنعك؟

قال وهو يضع لفافةً تبغ في فمه:

- ما يمنعني هو أنني لستُ رجلاً سيئاً، بداخلي رغبة عارمة في الوصول لأحلامي ولكن؛ ليس على حساب أحلام رجلٍ آخر، خاصةً لو كنتُ أعتبره صديقاً لي.

تبخّرت مخاوفي وعادت الدماء تسري في عروقي من جديد. سألته:

- وماذا الآن يا خالد؟

قال وهو ينفث الدخان:

- تعود لبيتك، تستمتع بلحظاتك الأخيرة فيه، وتودّع أهلك؛ ربما لن تراهم مجدداً.

وقعتُ إجابته فوق رأسي كالمطرقة. أحسّ بما كان يضطرم في أعماقي فقال:

- أنت الآن هنا لأنك تمتلك ما تمتلكه، وما تمتلكه لم يجعلك راضيًا عن وجودك هنا. ولذلك؛ أنت تسعى لكي تذهب هناك؛ حيث تصبح أحلامك حقيقةً. وصفة هذا الساحر ستحقق لنا أحلامنا، وبالتأكيد؛ سنتقلنا لمكانٍ آخر، مكان فيه أشخاص ليس لهم وجود في حياتنا الآن، وأشياء لم تلمسها أناملنا حتى هذه اللحظة.

ساد بيننا صمتٌ متوترٌ، قطعَه خالد قائلاً وهو يبتسم:

- لا تفكر في هذه الأمور، ولا تشغل بالك بتلك التفاصيل، ما يستحق أن نفكر فيه الآن هو أننا سنصبح سعداء للأبد يا صديقي.

كان قلبي يدقُّ بقوة، هزرتُ رأسي موافقًا، اتفقنا على أن نلتقي أمام صخرتي المفضلة مع بزوغ الضوء. بدأ خالد يحركُ مركبه وهو يقول:

- هذه آخر ليلة سنقضها كفقراء يراقبون السماء المظلمة، غدًا يا صديقي سنحلق في الفضاء. غدًا؛ سنلمس أيدينا النجوم.

خلف نافذة حجرتي وقفتُ أتأمل البحر كعادتي. رأيتُ مشهدين مختلفين تمامًا يحدثان في نفس اللحظة. المشهد الأول كان لرجلٍ يقف على حافة مركبه ويلقي شباكه بعنف في البحر، كان الغضب بادياً على قسماته، وعلى وجه هذا الطفل الذي كان يقف وراءه ويرتجف من شدة الخوف. لم أستمع للحوار الذي كان يدور بينهما، أو — إذا صحَّ المعنى — المحاضرة التي كان يلقاها هذا الأب على ابنه. كان الطفل يرتدي قميصًا أخضر اللون، الهواء كان يداعب شعره برقةً، والدموع كانت تقف على جانبي عيني، يمنعهما من الانزلاق خجله من أبيه الذي كان يبدو كبركانٍ منفجر. كان يحركُ يده في عصبيةٍ والطفل يهزُّ رأسه في خضوع. أحدثت أجراس المركب صوتًا، أخذ الأب يرفع الشباك في لهفة، وبدأ الطفل يبكي في صمت.

على بعد خطوتين رأيتُ مركبًا يقف على حافته طفلٌ يرتدي هو الآخر قميصًا أخضر اللون، كان تائهاً وسط الشباك التي يحملها، يحاول أن يقذفها بعيدًا ولكنها تسقط في كل مرةٍ على حافة المركب. من ورائه وقف أبوه مبتسمًا في سعادة. وضع يده فوق كتف الطفل وأخذ يتحدث معه بكلماتٍ لم أستمع لها، ولكني رأيتُ آثارها على وجه الطفل الذي أخذ يضحك في مرح. حمل الأب الشباك ولفها ببراعةٍ ثم وضعها بين يدي ابنه، أمسك يدي الطفل بقبضتيه ثم عاد بهما إلى الوراء ودفعهما لتسقط الشباك في البحر. تهللت أسارير الطفل، انحى الأب وقبَّل رأسه في حنان.

لا أعرف لماذا تذكرتُ في هذه اللحظة الرجل الذي يدعى «كريم»، ذلك النذل الذي ترك ابنه ذا القميص الأخضر في مدينة الظلام ورحل مع المرأة الجذابة.

دومًا ما كنتُ مقتنعًا بأن الفقر هو سبب هروب الآباء الذين عجزوا عن سدِّ الأفواه الملتصقة برقابهم. جدِّي كان يقول: «الغدُ دومًا يحمل حلولًا لمشاكل اليوم». صدقته، ثم رأيتُ مشاكل تسكن معي في

حجرتي ولا ترحل أبداً، فعرفتُ أن كلمات جدِّي كانت مجرد جبرٍ على الورق، وأن الهموم لا تتبخر بانقضاء الليل.

طرقت باب مكتب أبي وعندما لم يأتي رُدُّ فتحت الباب برفق. كان المكتب خالياً، وكان مقعده دافئاً. فتحتُ النافذة المطلَّة على مدينة الظلام، رأيتُ أبي يترنَّح في الطريق المؤدي للمدينة، كان يغني بصوتٍ صاخبٍ في استمتاع. الفضول كان يقتلني لكي أعرف سرَّ زيارته المتكرِّرة وتعلقه الشديد بمدينة الظلام في الآونة الأخيرة. كان جدِّي يقول: «قتل الفضول جريمة عقابها راحة العقول». حاولتُ كثيراً أن أطعن فضولي ولكنه كان يتقاضي هجماتي كل مرة، ويورِّق نومي كل ليلة بأسئلته التي لا إجابة لها.

خرجتُ من الطريق الواسع لطريقٍ أقل اتساعاً، كان أبي يتلفَّت وراءه باستمرار كأنه كان يشعر أن هناك شخصاً يراقبه، كنتُ أختبئ خلف الأعمدة والأشجار والأسوار حتى لا يشعر بوجودي. رأيتُه يقف مع مجموعةٍ من الرجال يرتدون قمصاناً زرقاء، كانت وجوههم تبدو مألوفةً بالنسبة لي، ولكنَّ الضوء الواهن المنبعث من المصباح الضعيف الذي يعلو رؤوسهم كان حائلاً بيني وبين التعرف عليهم. كان أبي يضحك في سعادةٍ تلاشت من حياتنا منذ زمن. سألت نفسي: «كيف يريح الظلام الناس من متاعبهم وهمومهم؟» لم يشغلني العثور على رُدِّ لسؤالي بقدر ما كان يهمني ألا يعرف أبي أنني أراقبه. انحنيتُ خلف سيارة مغطاة بطبقاتٍ من الغبار أخفت لونها تماماً. رأيتُ أبي يسرع في خطواته ثم رأيتُه – لأول مرّة – يركض. سألت نفسي: «كيف يمكن لعجوز مصاب بالتهاباتٍ في مفاصله وأعصابه أن يركض؟» لم تساعِدني معلوماتي الطبيَّة التي انتشلتها من بعض الكتب في الإجابة، ولا أعتقد أن هناك طبيبياً – مهما بلغت مهارته – يستطيع أن يجيب على سؤالٍ مثل هذا.

توقَّفتُ أبي فجأةً ثم بدأ يتحرَّك بخطواتٍ بطيئةٍ في اتجاه شخصٍ كان يقف في منتصف الطريق. وقفتُ خلف إحدى الأشجار، كان الضوء شحيحاً للغاية، لم يظهر شيئاً من ملامح هذا الشخص ولا حتى لون قميصه. ولكن؛ انحناءات الجسد والشعر الذي كان الهواء يحركه بعنف جعلاني أدرك أنها كانت امرأة. رأيتها تفتح ذراعيها وتستقبل أبي الذي اندفع في حضنها كطفلٍ عائدٍ من رحلةٍ طويلةٍ إلى أمِّه. شعرتُ أن هناك هالة من الضوء تتبعث من جسديهما المتلاصقين. رأيتُ أبي يحيط كتفها بذراعه وهما يسيران جنباً إلى جنبٍ نحو أعماق المدينة.

مضيتُ أتحمس الطريق الذي كساه الظلام بغطاءٍ سميك. كنتُ عاجزاً عن رؤية يدي الممتدة أمامي. أخرجتُ من جيبي مصباحاً صغيراً، كشفتُ غطاءه فانبعث منه ضوءٌ أزرق. قبل أن أمضي بحثاً عن أبي سمعتُ صوت أنفاسٍ لاهثة، حرَّكت المصباح نحو اتجاه الصوت، استقرَّ الضوء على وجه كلبٍ أسود ضخم. حاولتُ أن أخفي الخوف المتقدِّ بداخلي بكل الطرق. حافظتُ على ثباتي رغم الرعدة التي سرَّبت في جسدي، عضضتُ على لسانِي حتى تدوَّقتُ طعم الدماء. كانت عينا الكلب غاضبتين، وكان اللعاب اللزج يتساقط من فمه المفتوح على مصراعيه. وفجأةً؛ نبج الكلب بقوَّة وكأنه أسدٌ يزار. في تلقائية؛ التفتُّ ثم ركضتُ بأقصى سرعتي، بعد لحظاتٍ شعرتُ بأن مخزون الطاقة في جسدي قد

أصبح فارغاً. وقفتُ ألتقط أنفاسي، التفتُ خلفي في خوفٍ سرعان ما تلاشى عندما وجدتُ الطريق خالياً من البشر، والكلاب.

في طريقي للعودة إلى منزل الشاطئ قابلتُ حرية، كانت تحمل بين يديها طفلاً صغيراً ملفوفاً بملاءةٍ خضراء. بجوارها كان يقف هذا الخائن الذي كنتُ يوماً أعتبره صديقي قبل أن يطعنني بسكين الغدر في ظهري، ويختطف مني حبيبتي. مررتُ من أمامهما دون أن أعيرهما اهتماماً، سمعتُ حرية تقول:

- لماذا تركتني يا فارس؟

تسمرتُ في مكاني، التفتُ إليها، حدقتُ في وجهها في غضب وأنا أقول:

- لقد تخليت عني من أجل هذا الخائن.

التقط منها زوجها طفلهما ثم قال وهو يداعب وجهه في برود:

- لستُ خائناً يا فارس، لم أقترب من شيءٍ يخصك إلا بعدما ألقيت به على جانب الطريق، أنت يا صديقي ...

قاطعته بحدّة:

- لستُ صديقك.

قال وهو ينظر إلى في عتاب:

- اعذرني، لم أنس أننا كنّا أصدقاء في أحد الأيام.

قلتُ له في حق:

- كنّا، قبل أن تخونني.

أعاد الطفل لحرية ثم قال في عصبية:

- أحببتها قبل أن تقابلها، وشعرت بمرارةٍ لا يحتملها إنسان وأنا أستمع لقصص مغامراتك معها. لا يمكنني أن أصف لك شعوري وأنا أراك تسيء معاملتها، ولا تعطيها حقها. ورغم ذلك؛ وضعتُ فوق وجهي عشرات الأقنعة حتى أشاركك السعادة التي بنيتهَا على حساب تعاستي وشقائي. كنتُ أعرف أنك ستتخلى عنها يا فارس؛ حرية وردة أنت لا تستحقها. رأيتك تلقي بها في البحر فألقيتُ

بنفسي لأنقذها. أعرف أنها لا تحبني، ولكني رضيتُ بأن أكون سندًا لها، عوضًا عن السنوات العجاف التي قضتها مع أنانيِّ مثلك لا يفكر إلا في نفسه.

نظرتُ له باحتقارٍ ثم سألتها ساخرًا:

- هل كنتُ أنانيًّا معك لهذه الدرجة يا حرية؟

اغرورقتُ عيناها بالدموع وهي تقول:

- لم أحبَّ إنسانًا في الدُّنيا مثلما أحببتك، كل ما تمنيتُه هو أن أراك مهتمًّا بوجودي، وأن أطمئنَّ وأنا بجوارك، أحلامي كانت بسيطةً للغاية ولكن - بالنسبة لك - كانت مستحيلة لأنك أردتَ أن تحصل على كل شيءٍ دون أن تضحي بأيِّ شيءٍ.

سألتها باستنكار:

- وما هي أحلامك التي لم أحققها لك؟

قالت وهي تمسح دموعها بأطراف أصابعها:

- بيتٌ صغيرٌ يجمَعنا، وطفلٌ؛ طفلٌ نراه يكبر أمام أعيننا كلَّ يوم.

نظرتُ لطفلهما بإشفاقٍ ثم قلتُ لها:

- طفل؟! ولماذا قد أحضر طفلاً إلى عالم لا يعرف عن العدل شيئاً؟ لماذا قد ألقى بإنسانٍ في حفرةٍ أحاول كل يوم أن أخرج منها ولا أستطيع؟ هل من الطبيعي أن أقتل حريتي بيدي؟ وأن أضع نفسي في سجنٍ إلى الأبد؟

نظرتُ حرية للطفل الذي كان يتناب في صمت، قالت وهي تبتسم بأعينٍ دامعة:

- أن تسجن مع من تجب خيراً من أن تكون حرًّا ولكن؛ وحيدًا.

وضع زوج حرية يده على كتفها ثم ضمَّها لصدره، أدرتُ لهما ظهري ثم تابعتُ السير نحو منزل الشاطيء وأنا أشعر بالشفقة على هذا الطفل، وعلى أيِّ طفلٍ يولد ليجد نفسه في مواجهة عالم لا يعرف عنه شيئاً، في بيتٍ كتبت عليه الحياة فيه رغماً عن أنفه، ومع أهلٍ أنانيين؛ أحضروه للعالم من أجل سعادتهم الخاصة.

فوق الأريكة في صالة منزلنا؛ جلستُ أتأمل تلك الشجرة العملاقة التي كانت تطلُّ من اللوحة المعلقة فوق الحائط. سمعتُ صوت مفتاح أبي يولج في الباب، ثم ظهر أبي مبتسماً والسعادة تكاد تقفز من

عينيه. سألته بدون مقدمات:

- لماذا تركت أمي ترحل؟

تبخرت ابتسامته وازدادت تجاعيد وجهه، قال وهو يتكئ على حافة المقعد:

- لأنني أحبها.

سألته في استنكار:

- تحبها فتخرجها من حياتنا؟

ألقى بجسده فوق المقعد الذي استقبله بصوت صريرٍ خفيف ثم قال بصوتٍ منهك:

- مَنْ يحب يَجِبُ أن يضحّي بسعادته في سبيل سعادة من يحبُّه.

نظرتُ نحو لوحة الشجرة ثم سألته:

- وهل سعادة أمي كانت في انتقالها لبيت جدي حكيم؟

سكتَ أبي طويلاً حتى ظننته لن يردَّ ولكنه قال في النهاية بصوتٍ مختنق:

- من حقّها أن ترتاح يا فارس.

أردتُ أن أخبره أنني رأيته بصحبة امرأةٍ في مدينة الظلام ولكني أحسستُ أن أسئلتني قد ألفتُ به في بئرٍ عميقةٍ مليئةٍ بالأحزان. قلتُ في محاولة لتغيير الموضوع:

- بارك لي يا عمّ أيُّوب، أخيراً؛ سأصبح غنياً، وستتحقّق كل أحلامي.

نهض عن المقعد ثم قال وهو يدلّف إلى مكتبه:

- تبدو سعيداً يا فارس.

وقفتُ أمام باب المكتب المفتوح ثم سألته:

- وهل يحزن الإنسان إذا تحقّقت أحلامه؟

قال وهو يخلع قميصه:

- لو أخبرتك أن الحياة لا تعطي شيئاً بالمجان وأن البحر لا يرمم سفناً قبل أن يغرقها ستظنُّ أنّها كلمات قديمة تخرج من فم عجوز هرم. لم أكن أبداً هذا الشخص الذي يأمر وينصح طوال الوقت، دوماً ما كنّا أصدقاء، أليس كذلك؟

هزرتُ رأسي وأنا أبتسم، أردفَ أبي وهو يفكُّ أزرار قميصه الرماديّ:

- هذه رحلتك يا فارس، أبحر بمركبك في الطريق الذي يقودك لما تراه مناسباً لك، ولكن؛ تأكّد أن هناك طرقاً لا يمكن العودة منها أبداً.

اقتربَ أبي من وجهي ثمّ قال وعيناه تلمعان:

- التّسرّع ناصح فائيل يا صغيري.

قال أبي كلماته الأخيرة ثم قبّل رأسي وعاد ليقفَ أمام مكتبة الكتب العملاقة في ثباتٍ كأنه تمثال حجري.

وقفتُ خلف النافذة أتأمّل القمر الذي كان ينبعث منه ضوءٌ أصفرٌ واهنٌ. كنت كطفلٍ وعدتّه أمّه أن تسمح له بارتداء قميصه الجديد غداً، فظلّ مستيقظاً طوال الليل وهو ينتظر بزوغ الضوء الذي يحمل معه أماله، وأحلامه.

المكان الوحيد في العالم الذي لا يمكن أن أنساه أبداً، لم يكن بيتاً، ولا شارعاً، ولا مدينةً؛ كانت مجرد صخرة، وضعتني أمي فوقها وأنا ملفوف بملاءة خضراء، وجلست بجوارها وأنا أرتمي قميصاً أخضر اللون، رأيت القمر مضيئاً لامعاً وأنا أجلس فوقها بقميصي الأحمر، وبدأ ضياء القمر يخفت والسماء تتكدس بالسحب وأنا أجلس فوقها بقميصي الأبيض، ثم استيقظت يوماً لأجد قميصي أزرق اللون، سمائي حمراء، وقمري أسود.

تذكرت - وأنا أكتب هذه الكلمات - يوماً كنت أركض فيه بجوار الصخرة مع أصدقائي، قمصاننا الخضراء كانت جديدة، لامعة، ونظيفة. تعثرت، سقطت فوق الصخرة، وجرح رأسي. حملني أبي بين ذراعيه والدّماء تقطر فوق يديه، كنت أبكي وكأنّ نهايتي قد اقتربت. استقبلتني أمي بابتسامة هادئة، غسلت لي وجهي، ضمّدت لي جرحي، وأعدت لي شطيرة لحم، ثم قالت:

- عد لأصدقائك.

نظر لها أبي باستغراب، أخبرها بصوت هادي أنني في حاجة للراحة. قالت أمي:

- السعادة لا تدق باباً يرفع صاحبه رايات الاستسلام، وجروح الحياة لا تتوقف عن النزيف من تلقاء نفسها، ولكنها تخجل من الذي لا يخيفه لون الدم.

تركت الصخرة علامة في وجهي؛ كلما نظرت للمرأة ورأيتها أتذكر كلمات أمي على الفور. سألت نفسي كثيراً: «هل أنا نفس هذا الطفل الذي كان يجلس هنا بقميصه الأخضر، أم أنني قد استبدلت أثناء نومي برجلٍ أكثر نضجاً واكتئاباً؟!»

وسط ضباب الشاطئ رأيت خالد قادمًا، يدفع مجاديف مركبه في نشاطٍ وهمّة، وتعلو وجهه ابتسامة تقاؤل. فور أن رأته تسلل إلى قلبي شعورٌ بالسعادة. قفزت إلى مركبي، صافحني خالد بحرارة، وانطلقنا نحو مصيرٍ مجهول يخفي وراء ظهره ورود آمالنا المزهرة.

التقت إلى الشاطئ فوجدتها تجلس فوق صخرتي، ترتدي فستانها الأبيض، وتضع خلف أذنها وردة حمراء، وتبكي من الدموع أنهارًا. تساءلت بيني وبين نفسي: «هل تبكي على رحيلي؟» وفاجأتني بجوابها عندما رأيتها تلوح بيدها في لهفة. لوحت لها وأنا أبتسم. قال خالد وهو يضحك بعفوية:

- أرى أن علاقتكما تتطور بسرعة.

نظرت إلى البحر ثم قلت له في ندم:

- كان من المفترض أن أقرب منها، وأن أتحدث معها، ولكني اكتفيت بالنظر لها كالأحمق.

قال خالد وهو يناولني لفافة تبغ:

- بعدما تصبح غنيًّا لن تلتفتَ لهذا النوع من النساء.

أردتُ أن أسأله عمَّا كان يقصده، ولكنني عدتُ بخيالي إلى المرأة الجذَّابة التي قيَّدتني في سجنها، ارتجفتُ وأنا أتذكَّر نظرتها الساحرة، ولا أعرف لماذا شعرتُ بالرغبة الشديدة في أن أراها أمامي، أشمَّ رائحتها المثيرة، وأنظر في عينيها القاتلتين.

أشعلتُ لفافة التبغ بعود ثقابٍ ثم ألقيته في البحر، رأيتَه يطفو فوق المياه، تابعتَه حتى اختفى. سألتُ خالد عمَّا سنفعله لكي نحقق نبوءةَ الساحر. سحبَ نفسًا عميقًا من لفافته ثم ألقاها في البحر. أخذ يفكُّ أزرار قميصه والدخان يتسرَّب من فمه ببطء. خلع قميصه ووضعَه فوق مجداف المركب. رأيتُ حول خصره جزامًا جلديًّا سميكًا. فكَّه ببطءٍ شديد كأنه سينفجر إذا أخطأ في التعامل معه. خلف الحزام كانت هناك قطعة قماش سوداء ملفوفة بعناية، أمسكها ثم وضعها في منتصف المركب. فرَّدها بهدوء حتى ظهر كتاب الساحر. كان مغلفًا بجلدتين عائدتين لحيوانٍ مسكينٍ لم يكتفِ قاتله بذبجه، ولكنه جفف جلده ليصنع منه غلافًا لكتابه. صعدتُ إلى مركب خالد بهدوء، تناول خالد الكتاب بين أصابعه بجرصٍ شديد ثم جلس في منتصف المركب، ووضَع الكتاب فوق فخذه، أزاح الغطاءَ الجلديَّ لتظهر كلماتُ الساحر المكتوبة باللون الأحمر وبخطٍ لم أر مثله من قبل. اقتربتُ بوجهي من الكلمات لأقرأها ولكني لم أفهم حرفًا واحدًا. لم أفهم هل كانت حروفَ لغةٍ غريبة أم رموزًا تحتاج لتفسيرٍ أم شفراتٍ من عالمٍ آخر أم كانت تعويذاتٍ شيطانية! سألتُ خالد فقال في ثقة:

- الكتاب مكتوب بلغةٍ تعود لعالمٍ قديم، عالم قد دُفنت مَبانيه وتحللت جثَّت سكَانِهِ وتلاشى كأنه لم يوجد من قبل، ولم يَبْقَ منه سوى هذا الكتاب.

سألتَه في توتُّرٍ:

- وكيف سنقرؤه إذا كنَّا لا نفهمه!

ابتسم خالد في خبثٍ وهو يمرُّ أنامله فوق الورق برفقٍ وقال:

- لقد درستُ هذه اللغة وأتقنتها لكي أستطيع أن أقرأ هذا الكتاب.

أردتُ أن أسأله عن الطريقة التي درس بها هذه اللغة الغريبة، ولكنَّ سؤالًا آخرَ قتل زملاءهُ الأسئلة وألقى بنفسه من فوق حافة لِساني:

- ماذا قال الساحر في كتابه؟

اقترب خالد برأسه من الكتاب ثم قال وهو يتنقَّل بين الكلمات بعينيهِ:

- «الخريطة في رأس زائرٍ من القمر، صفحة الدماء تلمس أصابع البحر، عشبة القمر تذكر الرحلة».

رمقتُ خالد في دهشة، طلبتُ منه أن يعيد قراءة الكلمات مرةً أخرى، قرأها عدة مراتٍ حتى حفظتها، ولكني لم أفهم منها شيئاً. قلتُ لخالد مستسليماً:

- اعذر جهلي، هل تفهم شيئاً من هذا الكلام؟

قال خالد ببرود:

- نعم؛ المكان الذي ينبغي أن نذهب إليه لا يعرفه إلا زائر القمر.

سألته في غيظ:

- ومن هو زائر القمر يا عبقرى الشاطي؟

نظر إلى خالد في لامبالاةٍ ثم مدَّ يده نحو الكتاب، قلب الصفحة برفقٍ ليظهر وجه رجلٍ كان مرسوماً في الصفحة التالية لصفحة الرموز، في أسفل الورقة كانت هناك شفراتٌ أخرى، سألتُ خالد عن هذا الرجل فقال وهو يشير إليه:

- هذا هو زائر القمر يا صديقي.

بدأت الأسئلة تتدافع في رأسي في جنون، سألته في حيرة:

- وكيف سنصل لرجلٍ كان يعيش في زمن الساحر؟

أغلق خالد الكتاب برفقٍ ثم قال وهو يعيده داخل القماشة السوداء:

- لقد وصلتُ إليه بالفعل.

نظرتُ له في دهشةٍ سرعان ما تحوّلت لاستنكار، ابتسم خالد وهو يقول:

- بحثتُ عنه في كلِّ الوجوه، فوق الشاطي، بين المراكب، وفي مدينة الظلام، وأخيراً؛ وجدته.

كان عقلي يأبى أن يصدّق ما تسمعه أذني، سألته عن مكان هذا الرجل فقال:

- يجلس عند صخرةٍ فوق الشاطي، مكانه ليس قريباً وليس بعيداً، ولا تقلق؛ أحفظ عنوانه عن ظهر قلبٍ وأستطيع أن أذهب له وأنا مغمض العينين.

سكتَ لِساني ولم يسكت عقلي، أخذتُ ألقابَ المعلومات فوق بعضها ولم أصلَ لنتيجةٍ منطقيّةٍ، سألتُه في اهتمام:

- ما دمتَ تمتلك الكتاب، وتفهمه، وتعرف مكان زائر القمر هذا؛ لماذا لم تحصل منه على الخريطة وتتطلق إلى هذا الكنز المزعوم؟

نظر إلى بطريفةٍ جعلتني أشعر بالغباء ثم قال:

- هل تظنُّ أنني لم أحاول أن أفعل ذلك ألفَ مرة؟

لم أَرَدَّ، أتبعَ قائلًا:

- حاولتُ كثيرًا أن أقيع هذا الرجل بأن يدلّني على الخريطة ولكنه لم يقدني بكلمةٍ واحدة.

بدأت السماء تمطر على استحياء. سألتُه:

- هل تظنُّ أنه لم يتحدث معك لأنك لا تمتلك عشبة القمر؟

هزَّ رأسه بالإيجاب ثم سألني:

- هل تفكّر في سببٍ آخر؟

حاولتُ أن أبتلع صراحتي ولكني بصقتها في وجهه:

- أنا لا أوّمن بالخيالات يا خالد، أن يرسم ساجر صورة رجل يعيش في زمنٍ غير زمانه، ومكانٍ غير مكانه، ويربط إجاباته بعشبةٍ ما، ويكتب رموزًا غريبةً بالدماء، لقد جمعتُ كافة خرافات البشرية في قصةٍ واحدة يا صديقي، وتريدني أن أصدقها؟

قال خالد دون تردّد:

- إطلاقًا، لا أريدك أن تصدّق أيّ شيء، كل ما أريده منك هو أن تكمل رحلتنا هذه، وأعتقد أننا في نهايتها سنصل لإجاباتٍ كافة الأسئلة، وربما لن نصل لشيء، وعندئذٍ سنلقي بأسئلتنا في البحر، ونعود لحياتنا دون أن نخسر شيئًا.

اقتنعتُ برأيه، وأخيرًا؛ أغلقتُ باب الحديث في وجه أفكاره.

في الطريق رأينا رجلًا يرتدي قميصًا باليًا أصفر اللون، ويجلس فوق مركبٍ شديد الفخامة. قال خالد دون أن أسأله:

- هذا هو أمهرُ صانعِ مراكبِ في الشاطئ.

تقرّستُ في وجهِ هذا الرجلِ ثم سألتُ خالدَ عن سببِ ارتدائهِ ملابسٍ ممزّقة، قال في هدوءٍ:

- الخدمُ لا يسكنون القصورَ ما داموا يخدمون سكّانها.

أشار خالدُ فجأةً نحو الشاطئِ ثم قال:

- زائرُ القمرِ يعيشُ هناك.

اقتربنا من الشاطئِ، ربّطنا مراكبنا في عمودٍ مئبّتٍ بقوة في الرمالِ، قفز خالدُ من فوق المركبِ ففعلتُ مثله، سار بخطواتٍ وثيقة فسيرتُ وراءه، توقّف أمام رجلٍ كان يولينا ظهره فتوقّفتُ بجواره.

قبل أن أري وجهَ هذا الرجلِ أدركتُ أنه مجنون. كان يجلسُ في بركةٍ من الطينِ، يرتدي قميصًا كان ذات يوم لونه أصفر، ولكنه أصبح ملطّخًا بالطينِ والطحالب الخضراء، كانت تتبعثُ منه رائحةٌ ننته، رأيتُه يرسم رموزًا فوق الطينِ بأصابعه، أظافره كانت طويلة سوداء تتماشى مع هيئته وملابسه، وفجأة؛ التفتَ إلينا الرجل. ذهلتُ عندما رأيتُ ملامح وجهه، كان مطابقًا للوجه المرسوم في كتاب الساحر. مظهره زادني اشمئزازًا منه؛ وجهه كان أصفر، نحيلًا، ملطّخًا بالطينِ، اللعاب كان يسيل من جانب فمه والمخاط كان يتدلّى من أنفه. جسده كان يئنقُض كأنه مصاب بالصرع، يضحك بشدّة ثم يصمت ويتحدّث مع الرمالِ بجديّة، وسرعان ما يعود للضحك الهستيري. رفع رأسه وأخذ يحدّق فينا بعينين غائمتين وفجأة؛ نظرَ إلى في ذهولٍ وكأنه قد انتبّه للتوّ من غفوته ثم قال في جديّة:

- جيئتَ قبل ميعادك.

أدار وجهه ناحية البحرِ ثم قال بصوتٍ جهوريّ:

- لقد جاء الفارس قبل أن تبدأ المعركة.

أخذ المجنون يمخط ويبصق فوق الرمالِ، يتحدّث مع صخرةٍ كبيرة ثم يصمت كأنها تردُّ عليه. أخرجتُ علبة التبغ الحديدية من جيبِي وهنا التفتَ المجنون نحو العلبة وأخذ ينظر لها في ذهول. سألتُه:

- هل تريد العلبة؟

قال بهدوءٍ لا يتناسب مع رجلٍ مجنون على الإطلاق:

- هل هي مرسلة لي أم لك؟

كان خالد يعرف أنني وضعتُ عشبة القمر بداخلها، قال للمجنون ساخرًا:

- لو عرفتَ ما بداخلها لن تنظر لها هكذا.

التقت المجنون لخالد، رمقه بنظرةٍ مخيفةٍ ثم قال:

- لو عرفتَ ما بداخلها ستعود لمنزلك وأنت تركض حافي القدمين.

وقع ردُّ هذا الرجل فوق رءوسنا كالصاعقة، سألته وأنا أرتجف:

- العلبة بداخلها تبغ، لماذا تظنُّ أن بداخلها ...

قاطعني بحدّة:

- عشبة القمر تذكرة الرحلة.

سألته في لهفة مختلطة بالخوف:

- هل سأصبح غنيًا؟

قال المجنون وهو يرسم رموزًا فوق الرمال بأصابعه المتسخة:

- ستحصل على الكنز الأكبر، ولكن؛ لكلِّ شيءٍ مقابل.

سأله خالد:

- وما المقابل؟

أخذ يداعب الرمال بأصابعه وهو يقول:

- لقد جئتُ قبل ميعادك.

رفع المجنون رأسه ثم مدَّ يده وهو يقول:

- عشبة القمر تذكرة الرحلة.

فتحتُ العلبة الحديدية، أخرجتُ منها كرتي العشب، كانت أصابعي ترتجف بشدّة عندما مددتُ يدي للمجنون بالعشب. تناول العشب بأصابعه ثم قرّبَه من أنفه، أخذ يشمُّه بصوتٍ عالٍ، رفع يده بالعشب للسماء، انقلبت عيناه وأخذ جسده يرتجُ بقوةٍ وهو يقول:

- تفتَحُ بوابات الزمن لمن يمتطي حسانَ القمر، هو الذي أراد، هو الذي طلب.

لمحتُ خالد يرتعش بجواري، أنهى الرجل كلماته المرعبة ثم خفضَ يديه ونكس رأسه. بعد لحظاتٍ رفع رأسه، نظر إلى يتقحصني ثم قال:

- هل أنت مستعدٌ للتضحية؟

صمتُ ملياً ثم تشجعت وقلت في ثقة:

- مقابل تحقيق أحلامي سأضحّي بكلّ ما أملك.

مدَّ الرَّجُلُ يده بالعشب، مددتُ يديّ لكي آخذه، قبض على يدي بقوةٍ ثم اقترب من وجهي وسألني:

- وما لا تملكه أيضاً؟

قلت وأنا أحاول أن أنزع يدي من قبضته:

- سأضحّي بأي شيء.

رفع يده مشيراً إلى البحر وهو يقول:

- امضِ بمركبك نحو القمر، إذا رأيتهُ مضيئاً عد لمنزلك، وإذا اختفى قمرك ضَعْ عشبته في فمك، ومهما حدث؛ لا تنظر خلفك أبداً.

سألته في ذهول:

- لا أفهم، ماذا أفعل لو اختفى القمر؟

كان المجنون قد عاد لعالمه الغريب، حاوئنا أن نلفت انتباهه بشتّى الطُرق ولكنه لم ينطق بكلمةٍ أخرى. عدنا إلى مراكبنا والّصمت يغلفنا، دفعنا المجاديف بما تبقى في أجسادنا من قوّة، انطلقتُ مراكبنا نحو القمر الذي ظلّ يصغر ويصغر حتى اختفت صورته. أوقفتُ المركب فأوقف خالد مركبه هو الآخر. أخبرتُ خالد أن القمر لم يعد موجوداً. قال باستياءٍ واضح:

- قمري قد زاد بياضاً ونوراً، وكبرَ حجماً.

سكتَ قليلاً ثم قال في يأس:

- يبدو أنّني لن أكمل معك الرحلة.

امتلاً صوتي بالمرارة وأنا أسأله:

- هل ستتخلّى عن أحلامك بهذه السهولة؟

حدّق خالد في عينيّ ثم مدّ يده وهو يقول:

- أعطني كرة عشب يا فارس.

فتحتُ علبيّ الحديدية وناولته إحدى الكرتين دون تردّد. خلع قميصه وحزامه الجلديّ، أخرج القماشة السوداء التي تحتضن كتاب الساحر، قال وهو يضع كرة العشب داخل الكتاب:

- أنا طبّاح محترف، ومعى وصفةٌ سحريةٌ، سأبحث عن مطبخٍ مناسب، وسأدع الكنزَ يستوي على نارٍ هادئة.

أنهى كلماته ثمّ أمسك بالمجاديف، بدأ يدفعها بقوةٍ متوغلاً بمركبه وسط الضباب.

تذكّرتُ كلمات المجنون: «إذا اختفى قمرك، ضع عشبته في فمك». أخرجتُ كرة العشب من العلبة، رفعتها أمام عينيّ، نظرتُ لها في إعجاب، كانت تلمع كأنها قطعة ألماس نادرة، انبعثتُ منها رائحةٌ شهيةٌ، رائحةٌ ذكرتني بطعام أمي، رائحةٌ سال لها لعابي. شعرت برغبةٍ في تذوّق العشب، وضعتُه في فمي، ثم أغلقته. أعادني مذاقه لسجن المرأة الجذابة، ويوم رحيل أمي لمدينة الظلام، ومُنظر أبي وهو يقف بجوار مكتبة الكتب والكلب يتمسّح في أقدامه، ولحظة ارتطام جبهتي بصخرتي المفضّلة.

من بعيدٍ رأيت موجةً عاليةً تقترب من مركبي، ظلّت ترتفع وترتفع حتّى كادت تلامس السماء. لم أكن خائفاً، ولا مطمئناً، كنت خالياً من المشاعر، الأفكار، والرغبات. رأيتُ في منتصف الموجة دائرة سوداء قاتمة، أخذت تقترب وتتسع، لم أعرف هل تقتربُ مني، أم أقترب منها، هل المركب ثابتٌ في مكانه أم أنه يسقط بأقصى سرعةٍ في حفرةٍ ليس لها قرار.

عندما اقتربتِ الدائرة السوداء؛ أدركتُ أنها ليست دائرة، كانت كائناً غريباً، ينظر لي بأعينٍ حمراء متقدّة. شعرت بخوف سرعان ما زال عندما تبين لي أن هذا الكائن هو مجرد غراب، غراب حجمه كالقمر، وسواده كديجور الليل. فتح الغراب فمه وهجم على مركبي الذي لم يهتزّ، ولم يتحرّك. التقطني الغراب ثم دفعني إلى جوفه، وقفّت فوق لسانه أنظر عبر فتحة فمه إلى الشاطئ، رأيتُ حرية تداعب طفلها، وجوارها صاحبة الفستان الأبيض، كانت تضع وردةً صفراء خلف أذنها. رأيتُ خالد يتأمّل كرة العشب في ذهول، والمرأة التي أذقتني العشب في سجنها كانت تشعل لفافةً تبغ سوداء. رأيتُ جدّي حكيم يرتدي جلبابه الرماديّ، رأيتُ أمي تجلس فوق صخرتنا، تحمل فرشاتها وترسم. بدأ الغراب يغلق فمه بهدوءٍ وببطءٍ شديد، وقبل أن يسود الظلام رأيت الرجل المجنون، كان يداعب الرمال بأصابعه وهو يقول بصوتٍ مخيف:

- لقد جئتَ قبلَ مَوعَدِكَ، لِمَ العِجَلَةُ؟

كان جدِّي حكيم يمتلك في رأسه صندوقًا ممثلًا بالقصص الخيالية، في كل ليلة قضيتها في بيته؛ كان يمدُّ يده في هذا الصندوق، يلتقط إحدى القصص ثم يرويها بجدية تامّة، كنت أستمع لقصصه باستمتاع، عرفت بعدما تلون قميصي بالأحمر أن قصص جدِّي حكيم لا تمتُّ للواقع بصلة، ولكنها كانت - بالنسبة لي - كمخدر؛ وقعت أذني في فخ إيمانه، ومن شدّة إعجاب عقلي بهذه القصص حفظها بين طيّات الذاكرة، وضّحّي بالآف الأوراق حتى تجلس قصص جدِّي فوق الرفوف في سلام.

أكثر قصص جدِّي خيالًا كانت هي الأقرب للواقع، والأكثر إقناعًا بالنسبة لي. حكاية خيالية خرجت من فم عجوز يجمع أحفاده حوله ليقصّ عليهم أساطيره، فكّرت في هذه القصة آلاف المرّات، وتمنّيت في كل مرة أن تتحوّل لحقيقة، بأي ثمن.

حكى لي جدي عن رجلٍ لديه من الهموم ما يكفي بلدةً، ولديه من الثروات ما لا يشبع فأرًا. كانت مشكلاته تفوق قدرته على إحصائها، وأحلامه تفوق قدرته على تحقيقها، وأيامه تشابه ليلاً ونهارها. يستيقظ صباحًا، يقذفه عقله بأسئلة كالأحجار، يتقاضي بعضها، ويصيبه معظمها، ولا يهرب منها إلا عندما يقرّر عقله أن ينام. صداع رأسه لا يرحل عنه أبدًا لدرجة أنه أحيانًا كان يمرُّ بيده على رأسه ليتأكد أنه مازال في مكانه ولم ينفجر من كثرة التفكير. كان يشعر أن الأبواب قد سدّت في وجهه، الأعمار قد غابت، الشمس قد انطفأت، والسماء قد أظلمت. ذات صباح؛ استيقظ هذا الرجل ليجد نفسه يسكن في بيتٍ غير بيته، يرتدي ملابس غير ملابسه، ويمتلك وجهًا لا يشبه وجهه. كانت مشاكله قد تبخرت، وأحزانه قد تلاشت، وهمومه قد اختفت. وجد حوله أناسًا يحبونه بصدقٍ، يخدمونه بأعينهم، ويسعون خلف إرضائه بكل الطرق. حياته الكئيبة قد تبدّلت بأخرى سعيدة، وأحلامه البعيدة المنال قد تحقّقت كلها. سألني جدي حكيم:

- هل تعتقد أن هذا الرجل كان يخوض كابوسًا مليئًا بهموم تطارده ثم استفاق من نومه ليعود لحياته الرائعة؟ أم أنه كان يرى حلمًا جميلًا بأنه يعيش حياة خالية من الهموم وبعدها يصحو منه سيعود لحياته الكئيبة من جديد؟

كنتُ في هذا الوقت أرتدي قميصًا أخضر اللون، لم يستطع عقلي الصغير حينئذٍ أن يجدَ إجابةً لهذا السؤال، وأدركتُ بعد ذلك أن جدِّي لم ينتظر مني إجابةً بقدر ما كان يريدني أن أفكر في تفاصيلِ القصة. عاد جدِّي يذكرني بهذه القصة بعدما أصبح قميصي أبيض اللون. كنت قد فقدتُ شعفي لقصص جدِّي الطفولية ولكنني لم أفقد شعفي لصوته الرنّان ووجهه المبتسم ورائحته المريحة للأعصاب. قال لي جدِّي في هذا اليوم:

- أن يغيّر الإنسان حياته بأكملها هو حلم جميل يراود الجميع، وفي نفس الوقت هو أسوأ الكوابيس التي قد يحلم بها إنسان.

لم أفهم عندما فتحت عيني؛ هل أنا أخوض حلمًا جميلًا؟ أم أنني قد انتقلت من كابوسٍ مفزعٍ لواقعٍ تجمعت فيه كافة أحلامي وتحولت لحقيقة؟

فتحت عيني على قمرٍ مكتملٍ ناصع البياض، تنعكس صورته على صفحة الماء الراققة، ويرسم مع موج البحر لوحةً فائقةً الجمال تبعث في صدر من يراها سعادةً لم يشعر بها إنسانٌ من قبل. كنت جالسًا فوق مقعدٍ ضخمٍ وفخمٍ ومريحٍ للغاية. يدها كانتا مصنوعتين من الذهب، وفوقهما كانت يداي متمدنتين في استرخاءٍ. رفعتهما أمام وجهي، كان يغطيها رداءٌ لم أر له مثيلًا، اعتدلت في جلستي، انحنيت برأسي متتبعًا هذا الرداء، كانت هذه هي أول مرة في حياتي أرى معطفًا مصنوعًا من الذهب. تحسسته بأصابعي، أمسكت ياقته وشممتها، شعرت برائحة الغنى تتدفق في عروقي المسكينة، وبروحي ترقص خلف جدران قلبي. رفعت قدمي عاليًا وأنا أتأمل هذا الحذاء الذي كان مصنوعًا من جلد التمساح الذي لا يحتضن إلا أقدام الملوك. رأيت عشرَ خواتمٍ مرصعةٍ بجواهرٍ مختلفة، يزين كل خاتمٍ منهم إصبعًا من أصابعي. رفعت رأسي قليلًا لأجد فتاةً ترتدي فستانًا أحمر اللون، كانت صغيرةً رغم مفاتها البارزة، جميلةً رغم الحزن الواضح في عينيها. ابتسمت لي في استسلام، وانحنت أمامي في خضوع. من ورائها ظهرت ثلاث فتيات، يشبهنَّها في جمالها ورقتها وحزنها، وفستانها الأحمر الذي يكشف عن أجسادٍ نضجت مبكرًا، وقطفت من فوق الأشجار قبل أوانها. وقف النساء أمامي صفاً واحداً، وضعت ساقاً فوق الأخرى، لم أفهم لماذا وضعتها، ولماذا أمرتهم في حزمٍ وقسوةٍ أن ينصرفوا بعيداً عن وجهي.

تابعتنَّ وهنَّ يبتعدنَّ بخطواتٍ مسرعةٍ وبأقدامٍ ترتعش من الخوف. مررت بعيني مستكشفاً هذا المركب الغريب. كان حجمه يكبر حجمَ مركبي عشرين مرةً على الأقل. وكان مسقوفاً بسقفٍ مزخرفٍ لا يوجد تحته سوى مقعدي الذي كنت فوقه متكناً. المركب كان مطلياً بلون الذهب، أو مصنوعاً من الذهب، كان سطحه يتألق تحت الضوء. لم يفاجئني هذا الأمر، كما لم تذهلني تماثيل الطيور الذهبية المثبتة فوق سور المركب، ولا هؤلاء الرجال الذين كانوا متراصين على امتداد المركب؛ ينظرون إلى البحر، ويحملون سيوفاً نصالها تلمع تحت ضوء الشمس، وكأنهم يحمونني من الأسماك، أو البلل عن طريق الأمواج.

عن يميني كانت هناك منضدة، فوقها استقرت صينية ذهبية، كانت تحمل ثلاث كنوس ممتلئة بمشروباتٍ مختلفة؛ ماء، لبن، خمر. تناولت كأس الخمر، دفعت محتوياتها إلى جوفي، شعرتُ بعطشي يروى، وبصدري ينتعش، تجشأت في لامبالاة، وضحكتُ بدون سببٍ واضحٍ. نظرت ورائي، وليتني لم أنظر. لم تكن المشكلة في الرجال وسيوفهم وشواربهم الكثة، ولا في التماثيل الذهبية، ولكن؛ كانت الكارثة في هذا الرجل الذي كان جالساً فوق مركبٍ متهالك، وجهه أسمر، شعره أكرت، جسده شديد النحول، يرتدي قميصاً أزرق اللون، ويتأملني في ذهول. كانت هذه هي أول مرة أكتشف أن الإنسان قد يلتقي بنفسه، وتمنيت أن تكون آخر مرة. ما أدهشني حقاً هو أنني لم أندش، بل إنني لم أتأثر على الإطلاق. أشرت لأحد الرجال فجاء يلهث، وقف أمامي منحنياً، أمرته أن يعود إلى القصر، ولم أفهم؛ متى كنت أسكن في قصر؟ ولماذا تحدثت مع هذا الرجل باحتقارٍ شديد؟

من بعيدٍ ظهر الشاطئ، كانت الشمس على وشك المغيب، وكان هناك زحامٌ كبير من البشر، بدأ المركب يبطئ من سرعته، ومع اقتراب وصولنا؛ ارتفعت دقات الطبول. اختلطت بداخلي مشاعر متضاربة، ولكن؛ سعادتني غطت عليهم جميعاً. شعرتُ بأنني قد وصلت أخيراً إلى حلمي الذي يراودني منذ كان قميصي أخضر. رسا المركب، وفتح بابٌ وضعت أمامه سلالم مغطاة بسجادٍ أحمر. مدَّ رجلان مَفْتُولِي العضلات أيديهما، استندتُ إليهما وأنا أخطو فوق السلالم بحذائي الأسود اللامع. رأيتُ رجلاً طويلاً يخطو في اتجاهي بابتسامةٍ تغطي وجهه. كان يرتدي قميصاً رمادياً يغطي كرشه الضخم، قميصاً مرصعاً بالجواهر اللامعة. وجهه أصفر، لحيته سوداء مهذبة، وله عيون كعيون الذئب. وقف على بعد خطوتين مني ثم انحني في احترامٍ وهو يقول:

- الشاطئ أضيء بقدمك يا سيّد فارس.

ابتسمتُ وأنا أشعر بالزهو. كان جدّي يقول: «أسوأ مرضٍ قد يصيب إنساناً هو الزهو». شعرتُ أن الزهو يستحق أن يشعر به من وصل لمكانتي، وأن جدّي قال كلماته لأنه لم يتذوق هذا النعيم من قبل.

عشرات من الحرّاس وقفوا انتباهاً، صنعوا من أجسادهم الضخمة ممرّاً طويلاً مضيتُ فيه وأنا مستندٌ إلى عكاز أعطاني إيّاه أحد الخدم. كان مطليّاً بالذهب، ويعلوه تمثال لغرابٍ أسود لامع. وضعتُ راحة يدي فوق رأس الغراب ومشيتُ بين حرّاسي وأنا أستمع لصخب الناس المتجمهرين خلف صفوف الحرس. رأيتهم، ولم أرهم. سمعتُ شكواهم، ولم أنصت لكلماتهم. شممتُ فيهم رائحة الفقر، البؤس، والجقد. وشعرتُ بأنهم أقل من أن ألقتُ إليهم. تعجبتُ من إحساسي هذا وسرعان ما تبحرتُ دهشتي وعدتُ لزهوي وأنا أخطو فوق سلالم أعظم قصور الشاطئ. عبرتُ باب القصر العملاق لتقع عيني على مشهدٍ أعادني لحلمٍ قديم. كان القصر نسخةً من قصر المرأة الجذابة الذي تحوّل لسجنٍ ذقت فيه المرّ والعذاب. نفس الأعمدة المزخرفة، الأسقف المرتفعة، اللوحات الفخمة، جلود الحيوانات التي تكسو الأرض، ورعوسهم المحنطة والمثبّنة في الحوائط، الرجال عراة الصدور المنتشرون في أنحاء المكان، الثابتون كالصخور، والحاملون للشموع نصف المحترقة. لم أشعر بخوفٍ أو قلق. كنت متيقناً أن ما فات كان كابوساً، وأن هذه هي الحقيقة بأمّ عينها.

خطوتُ نحو الكرسي الذهبي الذي لا يجرؤ أحدٌ على الجلوس فوقه غيري. صعدتُ له درجتين من السلالم. جلستُ فوقه ووضعت ساقاً فوق الأخرى وأنا أتأمل المرأة التي جاءت تبتسم من بعيد. رأيتُ أجمل نساء العالم، ولم أر في مثل جاذبيّتها أبداً. عيناها الزرقاوان المحاطتان بأسوار من الكحل الأسود، رائحتها القادرة على إشعال نيران الرغبة في صدور رجال الدنيا، فستانها الذي يكشف من جسدها اللامع أكثر ممّا يغطي، ونظراتها التي تتوغّل في أعماق الرجال، تعصر قلوبهم، تنبؤ مشاعرهم، تمحو ماضيهم، وتخفي مستقبلهم. تذكرتُ هذا الحلم الغريب الذي رأيتها فيه تكبلني بالأصفاة، تصلبني إلى الحائط، وتعذبني في تلذذ. ضحكت. دوماً ما كانت تجلّديني بنظراتها، تفتح في رأسي أبواب الخيال، وتطلق من عينيها أسهم الشهوة. ليس غريباً أن أحلم بأنها تعذبني، هذه المرأة تعذبني منذ أن ألقت عيناها، ولا يهمني إذا كانت قد سجننتني خلف أسوارها، أم فتحت في وجهي

أبواب الحرية، المهم أن أفتح عيني لأراها كل يوم، وما دمت أنا ملك القصر، وحاكمه، لن يستطيع إنسان أن ينقص من سعادتي مقدار ذرة، أو يرفض لي طلباً، حتى لو كانت متعتي في رؤيته يقتلع عينيه بأصابعه.

صعدت السلالم دون أن تزيح عينيها عن وجهي، أمسكت يدي برفق، لثمتها، طبعت فوقها طلاء شفيتها الأحمر، ثم وقفت ورائي ووضعت يدها اليسرى فوق كتفي. شعرت بقوة فاقته تلك التي شعرت بها عندما تناولت عشبة القمر. سعد وراها صاحب عيون الذئب واللحية السوداء وهو يتصبب عرقاً، كان يبتسم رغم نظرات التوتر البادية في عينيه، وقف أمامي منحنيًا، أخبرني أن هناك صيادون لديهم طلبات ويريدون أن يعرضوها عليّ، وافقته على امتعاض. أشار لخدم يقف أمام باب القصر ثم وقف وراء ظهري بجوار المرأة الجذابة. فتح باب القصر، دلف منه خمسة رجال يرتدون قمصاناً مختلفة الألوان ومتشابهة الحال، كانت قمصانهم بالية، ووجوههم شاحبة، ونظراتهم خائفة، وأقدامهم مرتعشة. وقف الصيادون جنباً إلى جنب ثم انحنوا في خضوع. تقدم أحدهم خطوة للأمام ثم قال دون أن يرفع رأسه:

- سامحنا على إضاعة وقتك يا سيّد فارس، الموضوع هامٌ للغاية، بهم أهل الشاطئ جميعاً.

قال وزير الوافق وراء ظهري:

- تحدّث باختصار يا رجل، السيّد فارس ليس لديه وقت ليضيّعه مع أمثالك.

تعجبت من قسوة الرد، وأعجبت كثيراً في نفس الوقت. قال الصياد وهو يمسح عرق وجهه بظهر يده:

- وباء الفقر يا سيّد فارس قد تفشى بيننا، «جالب الخير» يأخذ ما يرسله البحر لنا كل يوم، وينام أولادنا ونساؤنا بدون عشاء.

سألته في لامبالاة:

- وما علاقتي بـ «جالب الخير» ورزق البحر يا رجل؟

رفع الصياد رأسه ثم قال وهو يخفي غيظاً بادياً في عينيه:

- ربما تعرفه يا سيدي فنتوسّط لنا عنده.

تجرت براكين الغضب بداخلي، نهضت عن مقعدي ثم قلت له في جدّة:

- كيف تجرؤ يا صعلوك على التحدّث معي بهذه اللهجة؟

ارتعد الصياد من الخوف، جلس على ركبتيه، ضمَّ يديه ثمَّ قال معذراً:

- لم أقصد يا سيد فارس، سامخني أرجوك، كل ما نريده هو ألا يأخذ أحدُ رزقنا الذي تنهك أجسادنا في سبيل الحصول عليه.

كان بداخلي صوتٌ يؤيد كلام هذا الرجل، ويؤكد أن أبسط حقوقه هو أن يطعم أولاده، وصوتٌ آخر كان يشحنني بالكراهية تجاه هذا الصياد، وباقي الصيادين الذين سمحوا لأنفسهم بأن يتهموني بسرقة رزقهم. دارت المعركة بين الصوتين، وانتصر فيها صوت الكراهية من الضربة الأولى. أشرتُ لأحد الحراس، قلتُ له في لهجةٍ أمرية:

- أحضِر «جالب الخير» فوراً.

خرج الحارس من باب القصر بخطواتٍ مسرعة، بعد لحظات عاد ومعه «جالب الخير»، وقف العجوز بجسده النحيل أمام الصيادين، سألته في استنكار:

- هل تأخذ من هؤلاء الرجال رزقهم؟

نظر لهم العجوز في دهشةٍ ثم قال في ثقة:

- لا أضع شيئاً في جيبِي يا سيّد فارس، ما يؤخذ من البحر يعاد للبحر مرّةً أخرى.

قلتُ له في حزم:

- هؤلاء الصيادون يتهمونك بسرقة رزقهم، من الآن فصاعداً؛ هؤلاء الرجال محرومون من بركاتك، لا تتوسّط لهم عند البحر، ولا تذكر أسماءهم تحت سفح القمر.

ركع الرجال الخمسة، أخذوا يتوسّلون بكلّ الطرق، سكبتُ أعينهم فوق الأرض بحوراً من الدموع، وأعلنوا عن ندمهم. عفوتُ عنهم، وأمرتهم بالانصراف. ما إن أغلق باب القصر حتى التفتُ لوزيرِي، قلتُ له هامساً:

- خذ مراكبهم وأحرقها، وتأكد أنهم لن يكرّروا فعلتهم هذه مجدداً.

انطلق الوزير بقميصه الرمادي نحو باب القصر، خرج منه بأعينٍ تشيع شراً لم أعرف من أين اكتسبته، ومتي أحببته، وكيف أتقنته. ما كنت متأكداً منه هو أنني كنت مستمتعاً بتحكمي في كل المحيطين بي، الشعور بالسيطرة كان يجعلني أصل لنشوةٍ لم أصل إليها قط. انحنت المرأة الجذابة، اقتربت من وجهي ثم همست في أذني:

- كفانا عملاً اليوم يا سيدي، حان الوقت لبعض من المتعة.

صعدنا السلالم أنا وهي، يدي اليمنى فوق كتفها، وأقبض على عكازي الذهبي بيدي اليسرى. مَشِينَا في رواقٍ طويل بين عشراتٍ من تماثيل الطيور الذهبية ولوحات الأشجار المرسومة بدقة وروعة توحى بمدى براعة رسّاميهَا. وقفتُ أمام أحد الأبواب، أخرجتُ من صدرها مفتاحًا نحاسيًا طويلًا، دسَّته في فتحته المخصّصة، أدارت آلية القفل ثم دفعت الباب برفق، دلَّفتُ إلى الداخل، ودخلتُ وراءها، كان المشهد الذي رأيته أغرب من الخيال؛ الغرفة كانت كبيرةً نوعًا، بها ما يقرب من عشرين سريرًا، السرائر مغطاة بفروشٍ حريريةٍ حمراء اللون، وفوق كل سرير كانت ترقد امرأة. ما يقرب من عشرين امرأة، مختلفات في ملامح الوجوه، ألوان الشعور، وأشكال الأجساد، جميعهنَّ كنَّ عارياتٍ كما ولدتهنَّ أمهاتهنَّ. البرودة كانت قاتلة، والمعطف الذهبي الذي كنت أرتديه لم يكن كافيًا لتدفنتي، وهؤلاء النساء لا تعطينَّ حتى خرقَةً باليةً. صوت بداخلي كان يصرخ في شفقةٍ وتُعطاف، وعشرة أصوات كانت تقهقه في سعادةٍ وإعجاب.

وقفتِ المرأة الجذابة في منتصف الغرفة، أشارت بإصبعها فانفض النساء من فوق الأسيرة، وقفنَّ أمامها صفاً واحداً، أيديهن خلف ظهورهن كأنهن مكباتٌ بقبودٍ غير مرئية، ورعوسهنَّ منكسات في استسلام واضح. توجَّهت المرأة الجذابة إلى أحد أركان الغرفة حيث المنضدة الصغيرة التي تحتضن شيئاً كأن يلمع من بعيد. أمسكت به ثم جاءت تسير في اتجاهي، وقفتُ أمامي ثم مدت يدها مفتوحة. كان هذا الشيء هو سوط له مقبض ذهبي يتدلَّى منه حبلٌ جلديٌّ سميك، طويل، ولامع. قبضتُ عليه بقوة، انتفض جسدي فور أن لامسته، سمعتُ صوتاً بداخلي يعاتبني بقسوة، وعشرة أصوات ثائرة تطلب منِّي أن أستخدم هذا السوط فيما يحبُّونه، ولم أفهم كيف يمكن للإنسان أن يستمدَّ سعادته من الآم غيره، ولكني كنت هذا الإنسان. وقفتِ المرأة الجذابة بجوارِي، مالت على أذني ثم همست:

- جميعهنَّ رهن إشارةٍ لك، ومملكٌ لك، وأنا أولهنَّ.

التقتُ لها، كانت تبتسم ابتسامةً جذابةً. رفعتُ عكازي لأعلى وكأنه سيف، نظرت للنساء باحتقار وكأنهنَّ أعدائي. وقفتُ أمام أول امرأةٍ في الصفِّ، لامستُ بذيل العكاز صدرها العاري، ثم وضعتُ أسفل ذقنها، رفعتُ به وجهها، كانت عيناها محاطتين بالسواد وكأنها لم تذق طعم النوم منذ أيام، رأيتُ علامات أصابع فوق وجهها، لونها خليط بين الأحمر والأزرق، نفس العلامات كانت مطبوعةً فوق جسدها في أماكن متفرقة، شعرت بشفقةٍ سرعان ما تحوّلت لنشوةٍ غريبة اجتاحت جسدي. أخذتُ أنتقل بين النساء، أقف أمام كل امرأة، أقلب في جسدها بعكازي، كأنها صندوق تقاح أبتغي شراءه وأخشى أن يكون مغشوشاً. كانت أشياء غريبة تثيرني وتوقِّظ في أعماقي رغبةً لم أدرك يوماً أنها تسكن بداخلي؛ علامات السوط المرسومة فوق ظهورهن، الجروح التي لم تلتئم بعد، الكدمات الزرقاء، نظرات اليأس والخوف والاستسلام، والعجز البادي في أعينهن. لم أشعر بشبهةٍ تجاه أي امرأة، وكأنني لست رجلاً، أو أنني أستمدُّ متعتي من رؤية الآمهن، ويأسهن. توقفتُ أمام إحداهن مذهولاً، ليس لجمال وجهها الأسمر، ولا لشعرها الأسود اللامع، ولا لجسدها ذي المنحنيات الجذابة، ولكن؛ لأنها كانت حرة.

لم أشعر تجاهها بهذا الحبّ الذي كان يملكني كلما كنت أنظر إليها، ولا ذلك الشوق الذي كان يدفعني لاحتضانها، ولا بالخوف الذي كان يجتاحني كلما كنتُ أفكر في الابتعاد عنها. لم أشعر بأي شيءٍ سوى الرغبة، رغبة في رؤيتها خاضعةً، مستسلمةً، وضعيفةً. أشرتُ بعكازي للمرأة الجذابة، انحنّتُ أمامي في خضوع ثم سارت بخطواتٍ مسرعة نحو باب الغرفة، فتحتهُ لي، عبرته، ثم دلفتُ إلى الغرفة المجاورة لها. كانت فوق الغرفة الأولى اتساعاً، ولم يكن فيها شيء سوى دولاب خشبي ضخم، سرير كبير، ومنضدة صغيرة ملاصقة للسرير. السرير كان مغطى بملاءٍ حريرية حمراء اللون، والمنضدة كانت فوقها زجاجات مختلفة الأحجام بداخلها خمور مختلفة الأنواع. بعد لحظاتٍ فتح الباب؛ ودخلت حرية؛ عارية الجسد، منكسة الرأس، تسير في اتجاهي بأقدام مرتعشة، ومستسلمة. جلستُ فوق السرير، وضعتُ ساقي فوق الأخرى، تركتها واقفةً فوق البلاط بأقدامها الحافية، سألتها:

- ألم تكن الحياةً معي من البداية أفضل؟

قالت في همسٍ كالضحك دون أن ترفع رأسها:

- نعم يا سيدي، وأنا آسفة لأنني أخطأت التصرف.

قهقهتُ في انتشاء، سألتها:

- ما رأيك في زوجك الخائن؟

قالت بنفس النبرة:

- كلب، جبان، لا يساوي شعرةً واحدة من شعرٍ رأسك.

ارتفعتُ ضحكاتي ودوت أصواتها، شعرتُ بسيطرةٍ وزهو. نهضتُ من فوق السرير، مشيتُ نحو الدولاب الخشبي، فتحته، ظهر باب خزانة حديدية ضخم، أمسكت مقبضه وأدرته فانفتح، دفعته بقوة، ظهرت غرفة أكبر من الغرفتين حجماً، تتقلت بعيني بين محتوياتها؛ سبائك من الذهب، جواهر نادرة، أكداش من كافة أنواع العملات التي حرص الناس على امتلاكها في كل العوالم التي سكنها البشر، وكنوز أرسلها البحر لآلاف من البشر. تركت الباب مفتوحاً ثم التفت لحرية، ناديتها، رفعت رأسها في تعبٍ وإرهاق واستسلام، أشرتُ للخزانة ثم قلت في تفاخر:

- لديّ خزائن خيرات لا تتضب. لا يوجد شيءٌ واحدٌ حلمتُ بامتلاكه ولم أملكه.

نظرتُ لها في حدةٍ ثم أردفتُ:

- ولا توجد امرأةٍ اشتيتها ولم أحصل عليها.

كانت عيناها ذاهلتين في الفراغ، ووجهها مستحماً بالدموع، انتشيت برؤيتها منكسرة ويائسة. أخذت أتمشى في الحجرة وأنا أقول في زهو:

- ترحلين عني، تتزوجين من رجلٍ غيري، وتتجبين منه طفلاً. وتظنين أنك ستعيشين في سلام وهدوء معه. زوجك الخائن لم يستطع أن يحميك من يدي، وابنك المسكين أصبح خادماً عندي، وهأ أنت؛ تقفين أمامي، عارية، خاضعة، لا حول لك ولا قوة.

حملت زجاجة خمرٍ ثم وقفت أمامها، رفعت وجهها بطرف إصبعي، مددت يدي بالزجاجة وأنا أقول:

- اشربي منها بقدر ما تشائين.

نكست رأسها وهي تقول في أسى:

- لا أشرب الخمر.

ضحكت، ألقيت الزجاجة فوق السرير ثم قلت لها في شفقة:

- لم أترك امرأةً تتذوق الخمر أمامي أبداً، ولكن؛ لأنك عزيزة على قلبي سأتركك تشربينها كاملةً. صدقيني، ما سأفعله بك بعد لحظاتٍ سيصيبك بوجعٍ ستمنينٍ وأنت تصرخين منه لو كنت قد شربت خمر الشاطئ كله.

أنهيت كلماتي ثم تناولت السوط، قبضت عليه، هويت به فوق المنضدة بكل قوتي، أحدث طرف السوط صوتاً مرعباً وهو يخترق الهواء ويجلد المنضدة التي انشقت وطار من فوقها زجاجات الخمر، سقطت فوق الأرض، وتناثرت قطع الزجاج في كل مكان. نظرت لحرية، كانت ترتعش، العرق يتصبب من وجهها بغزارة، ورائحة الخوف تنبعث من خلاياها، أخذت أتشممها بتلذذ، سألت نفسي: «ما هذا الكائن عديم الرحمة الذي احتل كياني وسيطر على عقلي»؟

تناولت حرية زجاجة الخمر من فوق السرير، فتحتها، رفعتها إلى فمها، أخذت تتجرع منها وفوق وجهها مرارة الدنيا. ظلت تشرب وتشرب دون أن تتوقف حتى لالتقاط أنفاسها، كانت تشرب كمدمن خمر محترف لم ير زجاجةً منذ زمن. أفرغت محتويات الزجاجة في معدتها ثم ألقته بها فوق السرير، وسقطت بجوارها. أخذت تنظر لسقف الغرفة بعينين زائغتين، تحاول أن ترفع رأسها ولا يطاوعها، تتمم بكلمات غير مفهومة، تبكي، تعرق، يختلط عرقها بدموعها، وحزنها بخوفها، ونظرات الخضوع بالاحتقار. وقفت أمامها، جانعاً كأسدٍ كان يطارد غزالة، ومنتشياً لأنني - أخيراً - أمسكتُ بها. كنت أرثدي معطفي الذهبي، لم أخلعه، أصوات الساكنين بداخلي كانت تطالبني بمتعة لا تحتاج لخلع الملابس، متعة تراها العين، تسمعها الأذن، ويشعر بها القلب. رفعت يدي بالسوط عالياً وقبل أن أهوي به فوق جسديها قالت حرية في جراءة:

- أنت أحرر إنسان في الدنيا يا فارس.

أنزلت يدي في ذهول واستغراب، قالت حرية وهي تهزّ رأسها يميناً ويساراً:

- لا، لا، لا، أنت لست أحرر إنسان، أنت لست إنساناً، أنت شيطان، لا يفعل ما تفعله سوى الشياطين.

سمعت صوتاً بداخلي يعاتبني على أفعال لا أتذكر أنني ارتكبتها، وكلمات لا أذكر أنني نطقت بها، وأشخاص يقول أنني أذيتهم وأنا لا أتذكر أنني رأيتهم من قبل. سمعت أصوات زحام في رأسي، كانوا يطالبونني بجلدها، وتعذيبها، وكنت مقتنعةً بنصائحهم، ولكن حرية نهضت فجأةً من فوق السرير، تراجعتُ خطوتين للوراء، وقفتُ أمامي تتمايل، لم تكن قادرةً على الوقوف في ثبات، قالت وهي مغمضة العينين كأنها تتحدث وهي نائمة:

- كم امرأةٍ عذبتها! كم زوجٍ حرّمته من زوجته! وكم أبٍ انتزعت ابنته من بين يديه!

بدأ العرق يتصبّب من وجهي، قلتُ لها في توتر:

- لم أغضب أي امرأةٍ على أي شيء، جميعهن جنن بكامل إرادتهن.

فتحت عينيها بصعوبة ثم قالت وهي تضحك:

- بكامل إرادتهن؟ ما زلتَ تكذب على نفسك وتصدق كلماتك؟ معك حق يا فارس، كل امرأةٍ تركت بيتها وجاءت لكي تتعذب وتجلد على يدك بإرادتها، وأنت لم تغصبنهن، ولم تسجن أزواجهن، ولم تهدهن بقتل أولادهن إذا لم تطعنك فيما تأمرهن بفعله.

انشطر عقلي لنصفين، نصف لم يصدق كلماتها، ونصف آخر كان يعرف أنها تقول الحقيقة. أحسستُ بأن قلبي مغلف بسوادٍ حالك، وأنه فقد القدرة على الشعور والتعاطف والندم. استندت حرية إلى طرف السرير، رأيتها تسير نحو الخزانة المفتوحة، أحدثت أقدامها صوتاً وهي تدهس قطع زجاج متناثرة، واختلط لونُ الخمر الأبيض المنسكب فوق الأرض بلونِ دماؤها الأحمر. وقفتُ أمام الخزانة ثم التفتت ونظرت إليّ في تحدٍّ وهي تقول:

- جعلت عجوزاً منافقاً يخدع الناس ويفتنهم بأنه وسيط بينهم وبين البحر لكي يأتيك برزقهم، وملاّت خزائنك بعرقهم وجهدهم وطعام أطفالهم الجياع. أحرقت المراكب وسجنت الرجال وخطفت النساء ويئمت الأطفال. الكل يقول عنك ظالم، ولكن؛ لا أحد يعرفك مثلما أعرفك.

انحنيت والتقطت زجاجة خمرٍ سقطت فوق الأرض ولم تتكسر، فتحتها، دفعتها إلى جوفها، شربت، تجسّأت، قالت وهي تترنح:

- كنت إنسانًا عندما كان قميصك أبيض، وأصبحتَ أنانيًا بعدما تلونَ قميصك بالأزرق، والآن؛ صرت وحشًا، شيطانًا، غرابًا يتغذى على جيف البشر، يسعد لرؤية أحزانهم، ويخنق بيديه رقاب أحلامهم.

فتحت أزرار المعطف الذهبي، ظهر قميصي الذي كان مستترًا تحته، كان مطرّزا بالذهب، ملمسه كان ناعمًا، ولونه صار رماديًا. سارت حرية في اتجاهي بخطوات مترنحة، الزجاجة في يدها، وعيناها مثبتتان على عيني، وقفت على بعد خطوة واحدة مني ثم قالت في ثقة:

- هل تعرف بماذا أشعر عندما أنظر لوجهك؟

لم أرد، أطالت النظر في عيني ثم قالت:

- أشعر بالشفقة، ولا شيء سوى الشفقة.

اقتربت بوجهها من وجهي، تغلّغت في أنفي رائحة الخمر، تذكرت رائحة الورود التي دوماً ما كانت تنبعث منها، همست في أذني:

- لو أخضعت نساء الدنيا، ستبقى خارقة ننتة لا جدوى منها، لو امتلكت كنوز العالم ستبقى جائعًا للمزيد كضبع خسيس، ولو هتف الناس جميعًا باسمك لن يغير هذا من حقيقتك. أنت مريض يا فارس، مَرَضُكَ معدٍ، وليس له علاج، ولكن؛ هناك طريقة واحدة للقضاء على الأوبئة.

رجعت حرية للوراء وفجأة؛ هبطت فوق رأسي بزجاجة الخمر. تكسّرت الزجاجة، وتفجّر صنوبر دماءٍ من رأسي. هرعت حرية نحو أحد أركان الغرفة، جلست فوق الأرض، احتضنت ركبتيها بيديها ودفنت رأسها بينهما. سقط السوط الذهبي فوق الأرض التي خلطت دمائي بدماء حرية، رفعت رأسي، تحسّسته بأصابعي، ولم أشعر بشيء، وكأنّ رأسي لا يوجد في مكانه الصحيح. شعرت بدوار رهيب، وبدأت تظهر أمامي أشياء لم تكن موجودة قبل ذلك. رأيت الرجل المجنون يجلس فوق حافة السرير، يرسم بعصاه الخشبية رموزًا فوق الأرض الملطخة بالدماء، يضحك عاليًا وهو يقول:

- لم العجلة؟

سمعتُ همهمات طيور، نظرت نحو سقف الغرفة، رأيت طيورًا سوداء تطلق، تحدث أصواتًا مخيفة، ويتساقط ريشها بغزارة. عبرتُ باب الخزانة، وقفتُ مكتوم الأنفاس أمام صندوق خشبي ضخم، شعرت بإغراءٍ شديد في فتحه، وعندما فتحته؛ رأيتُ غرابًا.

كان جدِّي يقول: «الذاكرة ساحرٌ قَبَعته الممتلئة فارغة».

بينما أكتب لك رسالتي هذه نبَّش أحد الكوابيس مقبرة ذاكرتي، احتلَّ مدينةَ عقلي المزدهمة، وأصرَّ على أن يذكرني بتفاصيله.

كنت أجلس فوق صخرتي، أتأمَّل أمواج البحر المتدافعة، المراكب المتراصة، والقمر الذي انطفأت أنواره. كان مشهداً عادياً مألوفاً حتى التفت نحو منزل الشاطئ. كان قد ازداد طولاً وعرصاً، وكان يهتزُّ بقوةٍ وكان زلزالاً يضربه. تتساقط منه الأحجار وتتصاعد منه سحبٌ من الغبار. تخيلت أن أبي وأمي في الداخل، وأن مكروهاً قد يصيبهما إذا لم يخرجوا من المنزل بسرعة.

شعرت أنني أسقط من فوق جبل شاهق، تثبَّت في الهواء، معلّقاً بين السماء والأرض بقوةٍ خفية. كان رأسي يهتزُّ يميناً ويساراً، رؤيتي للأشياء كانت مضطربة، والألوان بدت وكأنها فاقعةٌ أكثر من اللازم. ألقيت نظرةً على أقدامي لأتبيّن سبب خمولها، وفهمت سبب رفضها لتلبية نداءاتي عندما أدركت أنني بلا أقدام. كانت لدي ساقان، تخرج منهما أصابع تشبه المخالب. وبدلاً من اليدين، كان مكانهما جناحان. لم أتعجب، أو أندهب، كنت خائفاً، خائفاً كما لم أخف من قبل.

أعطى عقلي إشارةً لأجنحتي فاستجابا على الفور، حلَّقْتُ، ارتفعتُ لأعلى، أخذتُ الأشياء تصغر في الحجم، وتتباعد. شعرت بالحرية، وبمزيدٍ من الخوف. فكرتُ في أن أهبط فوق صخرتي من جديد، ولكنني تشجعت، ومضيتُ نحو منزل الشاطئ. طرْتُ نحو بوابته الحديدية، ووقفت فجأةً عندما ظهر أمامي هذا الكلب الأسود الذي كانت ترعاه أُمي. سدَّ جسده الضخم البوابة الضيقة، وأخذ ينبج بقوة، وشظايا الغضب تتطاير من عينيه. شعرت بمزيدٍ من الخوف. فكرت في أن أداهمه بسرعتي وأعبر البوابة من الجزء العلوي الذي لن يستطيع أن يقفز إليه، ولكن خوفي منعني، وقيدني، وأصاب أجنحتي بالرعشة. فتحتُ فمي لأطلب منه أن ينصرف بعيداً، ولكن حنجرتي لم تستجِب لرسائل عقلي لها. لمعت في رأسي فكرة شرعتُ في تنفيذها على الفور.

حلَّقْتُ بأجنحتي صعوداً نحو نافذة غرفتي المطلّة على الشاطئ. وقفت على حافة الشرفة، كانت الستارة مغلقةً، والرؤية صعبةً، ولكن؛ أحد جوانب النافذة لم يكن مغطىً، وكانت زاوية الرؤية عبره كاشفةً لما يحدث في الغرفة. أمعنتُ النظر وتجوّلتُ بعيني في أرجاء الغرفة. رأيتُ جسداً مضطجعاً فوق السرير، كان مولياً ظهره للنافذة، ويغط في نوم عميق. فوق أرضية الحجرة كان هناك عدد كبير من أواني الزرع، متراصة بعضها بجوار بعض، ومغطاة بملاءة بيضاء. التفتُ نحو البحر، كان القمر مظلماً، والشمس على وشك المغيب. عدتُ بنظري للغرفة لأجد هذا النائم يستيقظ. يتمطى، يتثاءب، ويلتفت نحو النافذة. التفتُ عينانا، ولم يذهل أيُّ منا، رغم أن المنظر كان يدعو للذهول. إذ كان هذا هو بيتي، وأنا أقف أمام نافذة غرفتي، فمن الطبيعي أن يكون هذا النائم فوق سرير؛ هو أنا، بشحمي ولحمي.

نظر لي في لامبالاة، ثم نهض من فوق السرير. كان - رغم تطابقنا - مختلفاً عني، شعره كان طويلاً، لحيته كانت طويلة، وجسده كان ممشوق العضلات. توجه إلى أواني الزرع، كشف الغطاء من فوقها، وسقطت مطرقة الدهشة فوق رأسي. كانت الأواني ممتلئة بعشرات من عشبة القمر، بيضاء، لامعة، وجذابة. أخذ يتأمل الأعشاب في سعادة وعشق لدرجة أنني تخيلت أنه سينحني ويقبلها. نهض أخيراً، ثم دلف خارج الغرفة. حاولت أن أستخدم عينيّ الثاقبتين في رؤية ما يحدث في صالة المنزل ولكن زاوية الرؤية كانت مسدودة. انتظرت حتى يعود، وعندما طال انتظاري، قررت أن أبحث عن مكان آخر أشاهدني منه وأنا أفعل ما لا أفهمه.

هبطت نحو بوابة المنزل، كان المكان خالياً، والكلب ليس له وجود. اجتزت عتبة الباب، ظهر الكلب فجأة، وقفز في وجهي مندفعاً. أفلت من قبضة فكّيه بأعجوبة، ووقفت في الهواء التقط أنفاسي، وأحاول أن أهدئ قلبي الذي كاد أن يتوقف عن النبض من شدة الخوف. حلقت فوق الطريق المؤدي لمدينة الظلام، عبرت من فوق بوابتها بسهولة ويسر. كانت هذه هي أول مرة أري فيها مدينة الظلام من الأعلى، وكان المشهد مرعباً لأبعد مدى ممكن. الظلام كان حالِكاً، والمصابيح كانت مطفاةً، والشوارع كانت خالية تماماً من البشر. التفت عائداً إلى منزل الشاطئ، اقتربت من نافذة غرفة أبي وأمي المظلة على مدينة الظلام، وقفت على حافتها، رأيت هذا الرجل الذي يشبهني، أو أشبهه، يجلس فوق حافة السرير، يحمل عباءة أمي الصفراء بين يديه، يشمها وهو مغمض العينين، يحضنها، ويقبلها. التفت شبيهي نحو النافذة التي أقف وراءها، رأيت يقترب من النافذة، ويتأملني في دهشة، دبّ الرعب في قلبي، ورأيت الخوف في عينيّه. أغلق الستائر بقوة، فاخفت الرؤية من جديد.

قفزت إلى حافة النافذة المجاورة؛ نافذة غرفة مكتب أبي. كانت النافذة مفتوحة، عبرتها وأنا أحارب الخوف المتقد بداخلي. وقفت أمام مكتبة الكتب العملاقة، كنت مشتاقاً لكل كتاب وضعته بيدي فوق رفوفها، وكل كلمة قفزت من السطور إلى قلبي وأنا أقرأها، وكل أبطال الروايات التي عشت مع قصصهم وشاركتهم أحزانهم وأفراحهم. عبرت نهر ذاكرتي عشرات اللحظات وكأنها مضى اخفت قبل أن تظهر. رأيت أمي وهي تقف أمام المكتبة لتنتقي كتاباً يؤنسها حتى يعود أبي من العمل، رأيت أبي وهو يقف أمام المكتبة ليتأمل الكتب التي لامستها أمي بأصابعها، ودهست قلبه برحيلها.

قفزت نحو مكتب أبي الضخم، كان مزدحمًا بأوراق كثيرة مبعثرة في كل مكان، كتب مفتوحة وأخرى مغلقة، أقلام بدون غطاء، ودواة بدون حبر. كان أحد الأدراج مفتوحاً، وقفت على حافته، وأخذت أتأمل كومة الأوراق التي استقبلت أفكار أمي، وحكمة جدّي، وصبر أبي. ضمت كلماتهم ثم جلست تنتظر من يحلم بسماع أصواتهم، ويصبر نفسه بصمت حروفهم المطبوع على الورق.

كان باب الغرفة مغلقاً. وقفت فوق مقبضه، أخذت أدفعه بمنقاري حتى فتح الباب. دسست جسدي الضئيل بين الباب والحائط، خرجت من الغرفة إلى الصالة، وقفت أمام لوحة الشجرة العملاقة التي كانت تزيّن الحائط. تأملتّها، تذكرت أمي وهي تجلس فوق صخرتي المفضلة، أمامها حامل خشبي مثبت فوقه لوحة بيضاء، بين أصابعها فرشاتها، وبجوارها كنت جالسا، أنظر لوجهها الجميل،

وأتأمل القمر الذي لم يجرؤ على الإظلام أبداً في وجودها. اغرورقت عيني بالدموع، لم أجد يداً لتمسحها فتركتها تنساب فوق صدري.

كان باب غرفتي موارباً، دفعته برفق، ودلفتُ إلى الداخل. ما رأيته داخل الغرفة كان مثيراً للغثيان، ومفزعاً للغاية. كانت الأرض مفروشةً ببساطٍ مصنوعٍ من قمصانٍ بالية، مختلفة ألوانها، ومتشابكة أطرافها. أواني العشب كانت مشتعلة، تتصاعد منها أدخنةٌ رائحتها كريهة. كان البساط مزدحمًا بعشرات من الحشرات والكائنات الغريبة؛ جراد، دود، صراصير، عقارب، ثعابين. ارتفعتُ بأجنحتي هرباً من منظرهم المرعب، لامستُ أجنحتي شباك العناكب التي كانت تغطي السقف وتندلي خيوطها من الحيطان. شعرتُ بخوفٍ مميت. وقفتُ في منتصف الغرفة أنفص ما علق بأجنحتي من خيوطٍ وأوساخ. لم يكن هناك أثاث في الغرفة، فقط هذا البساط، وشيء مكوم في أحد أركان الغرفة ظننته في البداية كتلة من الملابس ثم أدركت عندما تحرك أنه كان إنساناً.

كان يرتدي قميصاً رمادياً بالياً، جسده شديد النحول، ورائحته نتنة. اعتدل في جلسته، أسند ظهره إلى الحائط فظهرت ملامح وجهه. كان نسخة أخرى مني، نفس الملامح، العيون، والنظرات، ولكنه كان عجوزاً، منكمش الوجه، غائص العينين، كرية الرائحة، والغريب أنه كان ينظر لي؛ وبيبتسم في سعادة. قال بصوت أجش:

- عرفت أنك قد أصبحت ملكاً.

حركتُ أجنحتي ليفهم أنني عاجز عن الكلام، ولكنه لم ينتظر رداً مني، قال وهو يردُّ على نفسه:

- أصبحت ملكاً عجوزاً.

ابتسم ثم قال في ثقة:

- السن ليست عائقاً أمام السعادة، المهم أنك حققت ما كنت تتمناه.

تبدلت ملامحه وكسا الحزن وجهه وهو يقول:

- المشكلة ليست في السن، لقد تحولت لرجلٍ مريض، يعذب الناس، يتعدى على رزق غيره، ويدمر حياة الآخرين.

سكت لحظاتٍ ثم قال متسائلاً في اهتمام:

- ماذا عن خزانك؟ هل امتلأت؟

عاد الحزن لوجهه وهو يقول:

- امتلأت عن آخرها بالكنوز، وامتلتُ أنا بالخطايا.

ضحك فجأة وقال:

- يا لك من سيئ الحظ، لقد عشتُ حياة رائعة للغاية ووصلتُ لكل ما تمنيته يوماً.

قطّب حاجبيه في استغرابٍ ثم قال متسائلاً في دهشة:

- حياة رائعة؟

أخذ يتجوّل بنظره في أنحاء الغرفة في اشمئزاز ثم سأل نفسه:

- كيف هذا؟

نهض فجأة من جلسته، دار ببصره في أرجاء المكان وهو يقول في زهو:

- تمكنت من زراعة عشبة القمر، بعت الأعشاب للذين كانوا يبحثون عن سعادة لا تزول، وثروة بدون تعب. أصبحت أغنى رجال الشاطئ، تناولت من عشبة القمر آلاف المرات، ذاع صيتي وانتفعت ثروتني، حققت إنجازات لم يصل لها إنسان من قبل، وصرت أسعد رجل في الدنيا.

كان يتحدث بطريقة غريبة، كأنه تحت تأثير الخمر، أو شيء أقوى من الخمر. سأل نفسه في عتاب:

- لماذا لم تهرب؟

أجاب دون تردد:

- لأن الباب كان مغلقاً.

هرع نحو باب الغرفة المفتوح، وقف أمامه ثم قال:

- ولكن؛ الباب مفتوح.

نكّس رأسه، قال وهو يحرك يديه كأنه يمثل مشهداً في مسرحية:

- عندما حلمت بمغادرة الغرفة كان الباب مغلقاً بإحكام، انتظرتُ أن يأتي من يفتح الباب ويخرجني من هنا، طال انتظاري كثيراً، وأدركتُ بعدها أن المكان هنا رائع للغاية، ثم أدركتُ أن هذا الباب ليس له وجود، وأن هذا قصر؛ وليس سجنًا، وأن هذه هي الحياة التي حلمت أن أعيشها.

رفع رأسه نحو وجهي ثم قال في حزم:

- أنتم المسجونون في الخارج، وأنا هنا حرٌّ طليق.

اهتزَّ المنزل بقوة، ثم بدأت أحجاره تتساقط فوق رءوسنا. رأيت شبهي العجوز يخرج من باب الغرفة، وقف أمام لوحة الشجرة العملاقة، مد يده نحوها، لمسها بأنامله، ثم ابتسم في سعادة. اهتزَّ البيت من جديد، دبَّ في قلبي الرعب. اندفع شبهي العجوز من قوَّة الاهتزاز نحو باب غرفة أمي. اصطدم رأسه بالباب بعنف. سقط على الأرض، ثم نهض في برود. كان الدم يندفع من جرح رأسه، يتساقط فوق قميصه الرماديِّ الممزَّق، ولم يكن مبالياً. وقف أمام النافذة التي تطل على مدينة الظلام. فتحها، وقف فوق سرير أمي، وضع قدمه اليمني فوق حافة النافذة. صرخت بقوة لأمنعه ولكن صوتي لم يخرج من جوفي، خرج من حنجرة شبهي العجوز الذي قال في خوف:

- تراجع أيها المجنون.

التقت العجوز ناحيتي ثم قال وهو يبتسم:

- لقد جنَّت مبكرًا، لم العجلة؟

ثم ألقى بنفسه من النافذة. هرعت أحلقَّ عبرها لأرى ما حدث له، وجدته يسير في الطريق المؤدي لمدينة الظلام بخطواتٍ ثابتة. كان الشارع مضاءً بمصباحٍ يشعُّ نورًا برتقاليًا باهتًا، رأيت الدماء تتدفق من جرح رأسه، وقميصه كان يلعب بطريقةٍ جذابةٍ وغريبة. اقتربتُ منه، كانت دهشتي تفوق قدرة عقلي على تحمُّلها، رأيت شبهي العجوز بنفس ملامحه وجرح رأسه، ولكن؛ كان يرتدي المعطف الذهبي، والحذاء الجلدي، والخواتم المرصعة التي كنت أرتديها عندما انتقلتُ للقصر العملاق حيث الخدم الطائعون، والنساء العاريات. عبَّر بوابة المدينة، وعبرتُ من فوقها. غاصَ في شوارعها المظلمة، وحلقتُ أنا فوق رأسه.

توقف أمام منزلٍ يشبه منزل جدي حكيم. ظل يراقب الشُرفة الخالية باهتمام شديد. سمعتُ صوت البوابة الحديدية تتحرك، خرج منها طفل يرتدي قميصًا أخضر اللونٍ ويحمل في يده كرةً بيضاء. بدأ الطفل يلعب بالكرة في تلذذ، يركلها بقدمه بقوة، تصطدم في الحائط ثم ترتد إليه، يعيد ركلها من جديد. كان العجوز يشاهد الطفل في إعجابٍ واندهاش. جلس شبهي العجوز فوق رصيفٍ متسخ، رفع يده أمام وجهه، أخذ يتأمل الخواتم اللامعة التي كانت تزين أصابعه. شعرتُ برغبة عارمة في رؤيته يخلعها، ولدهشتي؛ رأيتُه يخلع خواتمه ويلقي بها بعيدًا. كان يضحك بصوتٍ مرتفعٍ وهو يحرر أصابعه من قيودها، والطفل كان قد توقف عن اللعب بالكرة وبدأ يتابع ما يفعله العجوز.

انتهى الرجل من تحرير أصابعه، نهض في نشاطٍ ثم خلع معطفه الذهبي وألقى به بعيدًا ثم عاد ليجلس فوق الرصيف وهو يبتسم في سعادة ورضا. كان الطفل ممسكًا بالكرة، تركها تسقط من يده، انحنى لينتقط خاتمًا زحف فوق الأرض ثم استقرَّ بين قدميه. رفعه أمام وجهه، نظر له بإعجاب

وذهل. حاول أن يضعه في إصبعه ولكن أصابعه كانت صغيرة والخاتم كان واسعاً. قال له شبيهي العجوز بلهجة أميرة:

- أترك هذه الأشياء يا صغيري والعب بالكرة.

نظر له الطفل في غير اهتمام. نهض العجوز ثم سار في اتجاه الطفل، قال له بصوتٍ ممتلئٍ بالمرارة:

- هذه الأشياء رغم لمعانها وبريقها؛ مؤذية، وتجلب من البؤس أكثر ما تجلبه من السعادة.

ابتسم الطفل في خضوع ثم وضع الخاتم فوق الأرض ودلف إلى بوابة منزله. تنهَّد العجوز في ارتياح سرعان ما تحوّل لقلق عندما خرج الطفل مجدداً من بوابته وهو يحمل حقيبة خضراء صغيرة. انحنى الطفل، التقط الخاتم ثم وضعه في الحقيبة. سار بعدها عدة خطوات ثم توقف أمام خاتم آخر كان ملقى فوق الأرض، التقطه ووضع في الحقيبة. مضى العجوز خلفه، تارةً يحذر به بقسوة، وتارةً ينصحه بلين، وفي الحالتين؛ لم يلتفت له الطفل الذي كان يبدو وكأنه يعرف ما يريد تماماً. ظل الطفل يجمع الخواتم والعجوز خلفه وفجأة؛ وقف بينهما كلب أسود ضخم الجثة. سمح للطفل بالمرور ثم وقف أمام العجوز الذي بدأ العرق يتصبّب من وجهه.

بدأ الكلب ينبح بقوة، ينظر للعجوز ثم يرفع رأسه لينظر لي. وقفنا - أنا والعجوز - أمام الكلب الذي قرّر فجأة أن ينصرف ويتركنا وكأنه قد أنهى المهمة المسندة إليه. تلفت العجوز حوله حتى يتأكد أن الكلب قد رحل، ثم أخذ يسير بخطوات مسرعة في اتجاه الطفل الذي ابتلعه الظلام وأخفاه. أخرج شبيهي العجوز من جيبه مصباحاً ذهبياً، أزاح من فوقه الغطاء فانبعث منه ضوء أصفر وهّاج. أضاء الطريق بمصباحه فرأيتُ على بعد عدة خطوات شاباً يحمل حقيبة الطفل الخضراء. كان يرتدي قميصاً أزرق اللون، ويفعل ما كان يفعله الطفل؛ ينحني ليلتقط خاتماً رآه يلعب، ثم يلهث وراء خاتم كان يلعب من بعيد. أخذنا - أنا والعجوز - نقترّب من هذا الشاب وفجأة؛ انطفأ نور المصباح. أخذ العجوز يهزه ويصفعه حتى أضاء مرةً أخرى. وفور أن انبعثت أنواره، أصابني الهلع.

كنت فوق رأس العجوز مباشرةً، وكان أمام وجه العجوز يقف رجلٌ وامرأة. كانا ينظران للعجوز في غضب، وكانت كل خلية في جسدي ترتعش من الخوف. ملامحهما كانت مألوفة، دققتُ النظر، وبحثت في ملفات الذاكرة المبعثرة، ووجدت أوراقهما. كان هذا هو الرجل البالغ الطول والنحول الذي كان ينتظر أمي أسفل المنزل ورحل معها لمدينة الظلام، وكانت هذه المرأة هي التي قابلتها أمام بوابة مدينة الظلام بصحبة أبي، عرفتها من الوشاح الأسود الذي يغطي رقبتها. مد الرجل يده نحو شبيهي العجوز، كان يحمل أحد خواتمه الذهبية، قال في سخرية:

- هل هذا ما تبحث عنه؟

تتاول العجوز الخاتم بأصابع مرتعدة. شعرت برغبة عارمة في أن أحلق بعيدًا عن هذا المكان، ولدهشتي؛ رأيتُ العجوز يركض بأقصى سرعته مبتعدًا. أخذ يركض دون توقف، وأنا أطيير فوق رأسه. لا نرى شيئًا من الظلام، ولا نريد شيئًا سوى الهروب. كانت الأسئلة تدور في رأسي كمسامير مدببة تخترق عقلي، وكان يراودني شعور غريب بأن وقت الردّ على الأسئلة قد فات، وأن الإجابات يحيط بها سياج غير مرئي يحول بيني وبين الوصول لها.

وصلنا للشارع الذي يعود بنا إلى الشاطئ. جلس العجوز فوق صخرتي المفضلة وهو يلهث من التعب والإرهاق. أعادتني الصخرة لمشهد أُمي وهي ترسم لوحة الشجرة العملاقة. تذكرت تلك اللحظات التي كنت أجلس فيها وراء ظهرها، تنتظر في المرآة، وأحاول أنا أن أجدل ضفائرها. تركت العجوز جالسًا فوق الصخرة، وحلقت نحو المنزل لأبحث عن وجه كنت جائعًا لرؤيته. هبطت إلى نافذة غرفة أُمي، وقفت على حافتها، نظرت لانعكاس وجهي في زجاج النافذة؛ ورأيت غرابًا.

عبر نافذة غرفتي المطلّة على الشاطئ رأيتَه جالسًا فوق صخرتي المفضلة، عرفته من جلابه الرمادي الفضايف، وشممتُ رائحته رغم طول المسافة التي كانت تفصل بيني وبينه.

أرسل عقلي لأجنحتي أمرًا بالتحليق، ولكنها لم تستجب. رفعتها أمام وجهي فوجدتها قد عادت كما كانت؛ أيديًا بشرية، تنتهي بأصابع أقصى ما يمكنها فعله هو الإمساك بالأوهام، والتخلي عن الأحلام، ولا يمكنها الطيران إلا في اتجاه الهموم والقلق.

فكرت في الوقوف أمام المرأة لكي أعرف من أنا، كيف صارت ملامحي، ومن أصبحت، ولكني تراجع، وهرعتُ فوق السلالم نحو بوابة المنزل. رمقني الكلب الأسود الضخم بنظرة عتاب، ثم جاء وهو منكس الرأس والحزن يكسو وجهه. أخذ يتمسح في أقدامي برفق، انحنيت، داعبتُ رأسه بأصابعي ثم نحيته بعيدًا ومضيتُ نحو الصخرة.

تغلغلت رائحته في أنفي، أحسستُ بصدرتي يفتح أبوابه، وبقلبي يتراقص من فرط البهجة. وضعتُ يدي فوق كتفه، وضع كف يده الغليظة فوقها ثم التفت، والتقت عينانا. مبتسم كعادته، عيناه مشرقتان، لحيته قد ازدادت بياضًا فوق بياضها، ووجهه كان نضراً مضيئاً، وكأنه قد عاد لشبابه المفقود. انحنيتُ، لثمت يده، نهلت من رائحتها، وشعرت براحة كنت في أمس الحاجة لها. نهض جدي حكيم بهدوء، وضع رأسي بين يديه ثم قبلها، أمسك يدي وسار نحو المراكب المتراصة.

تذكرت وأنا أمشي بجواره عندما كان قميصي أخضر اللون، وكان يأخذني معه في كل مكان، أستمع لمحادثاته الشيقة مع أصدقائه، أستمع بحكاياته ورواياته، أصلي وراءه في مختلف الجوامع، أشاهده وهو جالس وراء مكتبه يداعب أوراقه وأقلامه، وأتأمله بإعجابٍ طفوليٍّ لم يتأثر بتلون القمصان وتعاقب الأيام.

صعد جدي حكيم برشاقة إلى مركبه المتهاك، وصعدت وراءه. أمسك بالمجاديف، بدأ يدفعها بهدوء، وبدأ المركب يتحرك. لم أسأله عن وجهتنا، ولا عن سبب عودته للشاطئ، كنت مكتفيًا برويته، منتشيًا بوجودي معه. فوقنا كانت تحلق أسرابٌ من الحمام، بيضاء اللون، ترسم فوق ورقة السماء الزرقاء لوحةً جميلةً. توقّف جدي حكيم عن دفع المجاديف ثم أخذ يجول ببصره في الأرجاء، كان الشاطئ قد اختفى تمامًا، والقمر لم يكن له أي وجود. الشمس قد غربت، والبحر خالٍ من المراكب. وكأنه لا يوجد في الدنيا سوانا. سألتني جدي دون أن ينظر إليّ:

- علام تبحث يا فارس؟

أجبتُه دون تردد:

- عن الراحة يا جدِّي، عن رزقي يكفيني وثروة تغنيني عن إلقاء الشباك وانتظار العطف من بحرٍ لا يرحم أحدًا. عن مركبٍ واسعٍ، وقميصٍ جديدٍ، وبيتٍ فخمٍ، وكَنْزٍ تزرع رؤيته السعادة في قلبي.

سألني:

- لماذا تخليت عن حرية؟

نظرت له في غضبٍ ثم قلتُ بصوتٍ مرتفعٍ:

- هي من تخلَّت عني؛ تركتني من أجل هذا الخائن الذي لم يقدر صداقتنا، نَظر لما في يد غيره، وطمع في امتلاكه.

التقت جدي، سألني وعيناه تلمعان:

- وأنت يا فارس؛ ألم تنظر لما في يد غيرك من كنوزٍ و ثروات؟ ألم تطمع في امتلاك كل ما يمتلكه غيرك؟

صمتُ أبحت عن ردٍّ مناسبٍ، قال جدي بلهجة الواعظ:

- ليس المهم أن تجاوبني يا فارس، المهم أن تكون مقتنعًا بإجاباتك.

أشار جدي نحو سرب حمام وهو يقول:

- قل لي يا فارس؛ لو لم تعد حمامةً تشعر بالأمان مع أهلها، ماذا ستفعل؟

أجبتُه على الفور:

- ترحل عنهم.

نظر إليّ مبتسمًا ولم ينطق بكلمة، قلتُ منفعلاً:

- أنا لم أعتد على حرية يا جدِّي أبدًا.

قال بعد لحظة صمت:

- ليس كل الاعتداء جسديًا يا صغيري، أسوأ أنواع الضرر هو الأذى النفسي. وفي عالم النساء؛ لا يوجد ما قد يدمر امرأة أكثر من عدم الشعور بالأمان مع من تحبُّه.

قلت في محاولة للتبرير:

- أنا لم ...

قاطعني بهدوء:

- لا تكذب على نفسك يا فارس، لا تستمع لصوت لسانك، أنصت - ولو لمرة واحدة في حياتك - للصوت الذي يتردد بين ضلوعك. أنت تعرف أنك تخليت عن حرية، وضحت بها، وجعلت البحث عن الكنوز أولويتك في الحياة، ووضعت حرية في قائمة طويلة تضم كافة الأشياء التي ضمنت وجودها في حياتك؛ فلم تعد مهتمًا بالحفاظ عليها، وتعودت على امتلاكك لها، فلم تعد تشعر بقيمتها. حرية كانت - كأني بنت - تحلم ببيت يجمعها بحبيبها، وأمان تشعر به معه، وطفل تحبه وترعاه، ويكبر ليجد أباه مهتمًا به أكثر من الكنوز والمال. أما أنت؛ فالبيت رأيتَه سجنًا سيقضي على حريتك، والطفل رأيتَه مسكينًا سيظلم إذا جاء للدنيا وسيتذوق من الكأس المر الذي شربته.

نظرت له مليًا ثم قلت:

- أحببتُ حرية من كل قلبي، وظننت أنها ستحمّلي في أوقات ضعفي، وستنتظرنني حتى أعود لنفسي، ولكنها تخلت عني من أجل هذا الخائن.

قال جدي بإشفاق:

- أعرف يا صغيري أنك أحببتها، وأنها كانت تشغل جزءًا ليس صغيرًا من تفكيرك المزدهم. وأعرف أنك لم تتخطِ مرحلتها، ولم تقلب صفحاتها، وما زالت حية ترزق داخل رأسك، وقلبك. ولكن؛ حرية لم تتخل عنك، وصديقك لم يخنك. لا أحد يرضى لنفسه بالذل والهّم يا فارس. حرية أرادت أن تعيش الحياة التي حرمتها منها، وأنت أثبتت لها بكل الطرق أنك غير مهتم بأحلامها، لا بالبيت، ولا بالطفل، ولا حتى بالحياة معها. كلماتك وأفعالك أحرقت روحها، ودمرت كبرياءها، ودفعتها للركض في طريق جديد لم يعجبها ولكن؛ كان عليها أن تسير فيه لكي تضمّد الجراح التي أصيبت بها وهي بجوارك. وزوجها يا فارس لم يرتكب جرمًا عندما تزوج من المرأة التي كان يعشقها. دعني أصارحك يا فارس، وأختصر لك ما فعلته مع حرية. لقد ألقيتها من مركبك ومضيت تبحث عن الكنوز، وهذا الرجل رآها تغرق، فالتقطها بيديه، ودعمها بقلبه، وحملها فوق ظهره. كان يعرف أنها تبكي على فقدانك، ورغم ذلك؛ كان يجفّف لها دموعها. حرية كانت الكنز الذي يبحث عنه، وكانت بالنسبة لك صندوقًا خشبيًا لا قيمة له، صندوقًا ألقيته في ركن مظلم من مركبك، وتجاهلت وجوده، وانشغلت في رحلة البحث عن الذهب.

سكت جدي لبرهة ثم قال وهو يتتهد:

- أن يرزق الإنسان بطفلٍ من صلبه هي نعمة كبيرة، ثروة لا يساويها ذهب الدنيا، ولا ينبغي أن تكره الأطفال بسبب ما حدث لك في طفولتك.

تدفقت الدموع من عينيّ كالمطر، وقفت أمام خزائن ذاكرتي العالية، التقطت ملأً أصفر، أزحت من فوقه غبار الأيام ثم فتحته وبدأت أقرأ ما كتب فيه. تذكرت هذا اليوم الذي فعلتُ المستحيل لكي أنساه، وفي كل مرة كانت ذاكرتي تعيد عرضه أمام عينيّ وكأنها تلومني على جريمة لم ارتكبها.

كانت آخر كلماتٍ قالتها أمي له: «هل ستترك طفلك يا كريم؟» نظر لها من كان يوماً يدعى «أبي»، لم ينطق بكلمة، اقترب مني، وانحنى على ركبتيه. كنت أبكي بحرقة، وكانت عيناه جامدتين، وفيهما؛ رأيت نظرة لم أنسها أبداً، نظرة استسلام، خضوع، وضعف. من نافذة غرفتي رأيت يدها، تسير بجواره في ثقةٍ وغرور، ويتمايل جسدها الذي أغرته منحنياته فترك من أجلها عائلته. لم أر وجهها أبداً، ولكنني حلمت به ألف مرة، وتخيلت ملامح المرأة التي كانت سبباً في رحيل أبي عن بيتنا وحياتنا وأنا ما زلتُ طفلاً قميصه أخضر اللون. كعادة جدي حكيم؛ قرأ ما في صدري، وضع يده فوق كتفي وهو يقول:

- أخبرتك ذات يوم أن البحر يرزق من يستحق برزقٍ أكثر مما يستحقه، لم يعجبك كلامي، ورأيتَه مثالية مفرطة، وقلتُ لي يوماً إن البحر يرسل الذهب والكنوز لمن لا يحتاجها ويعطي للفقراء فتناً من الخبز لا يكفي لإطعام أطفالهم. الغريب يا فارس أنك لم ترَ رزق البحر الذي أرسل لك رغم ذكائك وبصيرتك وماكينات عقلك التي لا تتوقف عن العمل.

قلت له في حنق:

- مركبي متهالك، قميصي قديم، وجيبي فارغ، أين هذا الرزق؟

قال جدي دون تردد:

- أبوك هو رزقك الأعظم.

نظرتُ له في استنكارٍ فاقترب من وجهي وقال:

- أبوك الحقيقي يا فارس.

تمثلتُ أمام عينيّ ملامح عمّ أيوب، ابتسمتُ، قلتُ لجدي:

- عم أيوب هو أطيب رجال الدنيا.

قال جدي بلهجة تنم عن الثقة:

- هذا الرجل فعل ما لا يستطيع أن يفعله أحد، وتحمل ما لا يطيقه أحد. كان مجرد بناء فقير، وكان يحب أمك منذ أن رآها أول مرة جالسة فوق صخرتها. كان يعشقها، يتأملها وكأنها لوحة فنية نادرة، يحلم ببيت يجمعهما، ويعرف في قرارة نفسه أنه أفقر من أن يصارحها بحبه. ثم تزوجت أمك من «كريم»، وأنجبتك، ثم غرق زوجها في بحر الخمر، والشهوات، وجذبت العاهرات كقطعة حديد صغيرة يلتقطها مغناطيس ضخم، ثم ترككما، ورحل. تخيل أن تستيقظ امرأة فستانها أزرق في بيت خالٍ من الطعام والزاد بصحبة طفل قميصه ما زال أخضر، طفل يبحث عن رغيف ليسد به جوعه؛ ولا يجد لقمة. أمضت أياماً وهي تطرق أبواباً يسكن خلفها من كانوا يرَوْنها ملكةً وأصبحت في أعينهم مجرد مسكينة تركها زوجها لتتسحت ما يكفي لسد جوع ابنها. ثم يأتي «أيوب» ليطلق بابها، يتقدم للزواج منها، توافق على امتعاض، وتقاجأ مع الأيام أن القدر الذي ظننت أنه يدبر لها مكيدة قد أرسل لها ملاكاً من السماء، زوجاً لم يبتغ سوى رضاها، وضعها في عينٍ لأنه يحبها، ووضع ابنها في عينه الأخرى لأنه ابنها. كان يغادر المنزل مع بزوغ الضوء، ويعود مع هطول الظلام. تبتسم له، فيرضى، يأكل أقل من حاجته ليترك لكما طعاماً يكفيكما، وينام مدةً لا تكفي لإراحة جسده حتى يعود للعمل ليسد حاجتكما. ثم تصطدم أمك بمرضٍ أضعف قلبها، وآلم جسدها، وقضى على طاقتها وقدرتها على خدمة زوجها، وخدمتك. يحملها أيوب بذراع، ويحمل ابنها بذراع أخرى. يعود من العمل بجسدٍ منهك، يعد لكما الطعام، يعطيها الدواء، يجلس تحت قدميها حتى تنام، ثم يلعب مع هذا الطفل الذي أحبه من قلبه، واعتبره ابنه الذي لم ينجبه، وعوضه عن الوحدة التي أداقته مرّها ومرارها. هذا الطفل الذي تلون قميصه بالأحمر وفهم أن «أيوب» زوج أمه، ثم اصطبغ قميصه بالأبيض فبات يراه «عم أيوب». «أيوب» الذي ضحى بعمره من أجل إسعاد طفلٍ استكبر أن يناديه بـ «أبي».

شعرت بالقهر وأنا أقول:

- أحببتُ عم أيوب وكنت أعتبره أبي حتى رأيتَه يتعارك مع أمي، ورأيتها تبكي بسببه.

ردّ جدي بهدوئه المعتاد:

- كانا كأبي زوجين، يختلفان، يتشاجران، ويتصالحان. وأيوب دوماً ما كان يتعارك مع أمك لأنه كان يحبها، ولا يريد أن ترهق جسدها في القراءة والكتابة، العادتان اللتان أدمنتهما، وأرهقاها، وأنهكا قلبها. أما أنت، فكنت تتظر لهما بعين الطفل الذي لا يريد أن يرى أمه تبكي، والغريب أنك كبرت ولم تتضح، ما زلت تربط بين البكاء والغضب، يا صغيري؛ السعيد يبكي، والحزين يبكي. الغاضب يبكي، والممتن يبكي. المحب يبكي، والكاره يبكي. البكاء سلوك إنساني، هبة من الله وهبنا إيّاها لنريح بها أرواحنا، بوابة نطرد عبرها همومنا وأحزاننا، وطريقة نعبر بها عن سعادتنا، وغضبنا.

غمغمتُ بضيق:

- اللعنة على الكتب، جمعتها أمي طوال حياتها، ملأت بها مكتبتنا العملاقة، ثم رحلت إلى مدينة الظلام ولم تترك لي شيئاً سواها.

سألني جدي وهو يستطلع وجهي:

- وأنت - بعدما أصبح قميصك أزرق - أدركت أن الكتب ليس لها قيمة، صحيح؟

نظرت له في صمت، قال في صوتٍ منخفض:

- الأشياء تكتسب قيمتها يا فارس من نظرات الناس لها. ونحن يا صغيري لا ننظر للأشياء بنفس الأعين. رغيف العيش يراه الجائع كنزاً، الغطاء يراه اليردان كنزاً، قميصك القديم يراه العراة كنزاً، بيتك الضيق يراه المشردون كنزاً، هناك من يرى إعجاب الناس به كنزاً، وغيره يرى في الوحدة كنزاً، والكتب يا صغيري مثل كافة الأشياء، من لا يعشقها قد يشعلها ليدفئ يديه، ومن جرب أن يغوص بين صفحاتها وينهل من حكمتها وحده من يعرف قيمتها؛ ويراها أكبر الكنوز.

وضع يده فوق كتفي ثم قال:

- لم أترك لأمك يا صغيري ذهباً ولا فضةً، تركت لها كتباً أمضيت آلاف الأيام في كتابتها. ونقلتُ لها عدوى حب الكتابة وعشق القراءة. نصيبك يا فارس كان صندوقاً خشبياً ممتلئاً بالورق، وكنزك الوحيد كانت مكتبة الكتب العملاقة. ولا يعني هذا أنك عاجز عن الوصول لكنوز أخرى غير الكتب. الحياة متاهة كبيرة، وكل خطوة نخطوها تدفعنا للسير في طريقٍ جديد، وكل طريق يتفرع منه ألف طريق.

سألته في دهشة عما يقصده، أمسك بمجاديف المركب ثم بدأ يدفعها برفق، تحرك المركب مخترقاً الأمواج الهادئة، ظهر أمامنا عدة مراكب مختلفة الأشكال والأحجام، يجلس فوقها رجال يرتدون قمصاناً مختلفة الألوان. سألته:

- أين نحن يا جدي؟

قال بصوتٍ مرتفع:

- نحن في «بحر اللوكان» الخاص بك يا فارس، كل رجلٍ من هؤلاء الرجال هو نسخة منك كنت ستتحول إليها «لو كان» شيء لم يحدث قد حدث.

رأيتُ رجلاً يشبهني، كان يجلس فوق قطعة خشب طافية فوق الماء، كان يبدو من شحوب وجهه ونحول جسده الشديد أنه لم يتذوق الطعام منذ أيام، أشار له جدي وقال:

- لم تكن أمك موافقةً على الزواج من أيوب، لو كانت رفضته؛ كان الفقر سيحيط بكما من كل اتجاه، كنت ستصبح متسولاً بعدما تصير أمك مريضةً، وكان سينتهي بك المطاف لأن تصير هذا الرجل.

أمسك جدي مجاديف المركب ودفعها فتحركت ببطءٍ شديد، وقف أمام مركب كان يجلس فوقه رجلٌ قميصه أصفر، ملامحه قريبة من ملامح وجهي، يحمل في يده زجاجة خمر كبيرة، دفع آخر قطراتها إلى فمه ثم ألقى بها في البحر. قال جدي:

- قبل أن يرحل أبوك حدثت مشاجرة بينه وبين أمك، كان يريد أن يأخذك معه، ولكنها أصرّت أنك ستعيش معها. لو كنت رحلت مع أبيك؛ كنت ستغرق معه في بحور الخمر والشهوة، وكنت ستحوّل مع الأيام لهذا الرجل.

أدار جدي مركبه ثم تحرك به حتى توقف أمام مركبٍ تعرفت عليه فور أن رأيته، كان ذلك المركب الذهبيّ الذي يملكه العجوز الذي عشت في قصره، وسكنت في صدره، ورأيت الدنيا بعينيه. قال جدي:

- هناك طرق كثيرة تنتهي بثروات ليس لها حصر، وكنوز تفوق أحلام البشر، هذه الطرق توصل السائر فيها إلى الغنى بسرعة غريبة ومريية. ولكي تندفع مركب السائر فيها عليه أن يمدها بالوقود، ووقودها هو ظلم الناس، استغلالهم، وسرقتهم. لو سلكت طريقاً منها ستصبح هذا الرجل، ولو سلكت طريقاً آخر من تلك الطرق المظلمة ستصبح رجلاً غيره، غنياً، وظالماً للناس مثله.

ظهر من بعيدٍ خالد بعضلاته المفتولة وقميصه مفتوح الصدر، توقف جدي أمامه ثم قال:

- فكرت كثيرًا في أن تربي شعرك وذقنك وتمرن عضلاتك، كنت تريد أن تغير كل شيء حولك بدايةً من هينتك الخارجية وملابسك، ووصولاً لمسكنك ومأكلك وأصدقائك. في هذه الفترة؛ كنت تبحث عن الحرية بأي ثمن، ولا تريد أن يملي أحد عليك أفعالك، أو يسدي إليك أي نوع من النصائح. كان هذا طبيعيًا بالنسبة لشابٍ يرتدي قميصًا أبيض اللون. حاولنا معك بكل الطرق حتى تتوقف عن الاندفاع والتسرّع. ولم ينجح في إيقافك إلا أيوب الذي استطاع أن يقنعك أن تتخلى عن تلك الأفكار في مقابل كتابٍ جديد كنت تتمنى أن تحصل عليه.

سألت جدي في حيرة:

- وهل الرغبة في التغيير جريمة يعاقب من يفكر في ارتكابها؟

- حاول أن تنظر للصورة الكبرى يا فارس. من حقّ أي إنسانٍ أن يرتدي ما يحب، ويعدل هيئته كما يشاء. ولكن؛ لم يكن موضوع الشعر والعضلات بالنسبة لك - في هذا التوقيت - سوى وسيلة أردت أن تثبت بها لنفسك أنك تستطيع أن تسير عكس التيار، وتفعل ما يراه الناس غريبًا، أو خاطئًا. كنت في أكثر مراحل حياتك تمرّدًا، لو كنت قد غيرت شكلك وتمكنت من فرض سيطرتك وأفكارك الجنونية على الجميع لم يكن أحد ليتمكن من إيقافك بعد ذلك، كنت ستصاحب مجموعة أصدقاء يفعلون ما يلمع في رؤوسهم دون تفكير أو تردّد، كنت ستجرب كل ما تعرف أنه مضر، وسترتكب

كل الأفعال المحرمة باسم الحرية، وكنت ستدرك متأخرًا أن الحياة لا تسير بهذه الطريقة، وأنت ألقيت نفسك في بئر غويط مظلم، وسلكت طريقًا العودة منه شبه مستحيلة.

دفع جدي مجاديف المركب ثم توقف أمام مركب يجلس فوقه رجلٌ يحمل بين ذراعيه طفلاً صغيراً، قال جدي:

- لو كنت تزوجت من حرية كنت ستجيب هذا الطفل، كانت نظرتك للأمور ستتغير، وكافة تفاصيل حياتك ستتبدل.

سألت جدي في ارتباك:

- هل كان هذا هو القرار الأمثل؟

ابتعد جدي بالمركب وهو يقول:

- لا يوجد شيء اسمه القرار الأمثل، نحن بشر يا فارس، لا نستطيع أن نتخذ قرارات سليمة طوال الوقت، عقولنا معتادة على الخطأ، ولسنا مطالبين بالتصرف كملائكة.

سألته في دهشة:

- حتى أنت يا جدي أخطأت من قبل؟

ضحك وقال:

- أحتاج لألف يوم يا فارس لكي أعد لك الأخطاء التي ارتكبتها في حياتي.

نظرت له غير مصدق، قال جدي وهو يبتسم:

- عندما رأيتني يا فارس كنت قد أصبحت الجد حكيم، أنت لم ترَ نسختي السابقة، ولا تعرف شيئاً عما يحدث في رأسي وأشعر به في صدري. جميعنا يا صغيري نتخذ قراراتٍ خاطئة، ومعظم قراراتنا يكون الرجوع فيها صعباً، وأحياناً مستحيلًا. والقرار الأمثل بعدما نخطئ هو أن نتعايش مع نتائج أخطائنا، جلد الذات لا يغير ما حدث، والعتاب المستمر يصيب الأنفس بالاكنتاب. وما دما قادرين على إلقاء شباكنا في البحر، لماذا لا نتفاعل بأنه سيرسل لنا خيرًا ممَّا أضاعته أيدينا؟

قلت له في اقتناع تام:

- البحر لا يرسل ما نتمناه أبدًا.

قال جدي في ثقة:

- إذا كان ما تتمناه لن يفيدك فأنت محظوظ لأن البحر لم يرسله، وإذا كنت لم تبتذل المجهود الكافي للحصول على ما تتمناه، لا تنتظر أن تلتقطه شباكك لأنك تلقىها كل يوم. الحياة يا فارس هي أبسط منظومة معقدة لو قمتَ بدورك فيها ستحصل على ما تبتغيه منها. كل المطلوب منك هو أن تسعى، وصدقتي، البحر لا يبخل أبداً على الساعين إلى الرزق.

قلت له في يأس:

- لقد فعلتُ المستحيل لكي يرسل لي البحر ما يجعلني سعيداً، ولم يرسل سوى أوراق، وكتب.

- لم أرك سعيداً في حياتي مثلاً كنتُ أراك وأنت تحمل بين يديك كتاباً وتطالع صفحاته، ولم أشعر أبداً أنك متحمس لفعل شيء إلا عندما وجدتك تحمل قلم أمك ودفترها وتجلس فوق مقعدها وتحاول أن تكتب مثلها. ربما يا فارس كانت مشكلتنا الكبرى هي أننا قضينا حياتنا في البحث عن السعادة في كافة الطرق ولم نكلف أنفسنا بالبحث عنها في بيوتنا، وجيوبنا.

مد جدي حكيم يده في جيبه ثم أخرجها وهي تحمل الحلوى التي كانت مصدر سعادتي الكبرى قبل أن يئولن قميصي، وينضج عقلي، وتتغير اهتماماتي. مد يده بالحلوى فالتقطتها بين أصابعي، نظرتُ له فوجدته يبتسم في عذوبة، وضعت الحلوى في فمي، استشعرتُ مذاقها الرائع، أعادتني لزمين تمنيتُ أن تتوقف مراكب العمر عنده، أعدتُ ظهري للوراء واستندتُ إلى حافة المركب،

أغمضت عيني،

ونمت.

كنت جالساً فوق صخرتي، الغيوم تحجب زرقة السماء، والموج هائج متدافع، وأبي يقف أمام بوابة منزل الشاطي، يداعب الكلب الأسود أقدامه، وتقف بجواره مكتبة الكتب العملاقة في سموخ. أقترب منه بخطواتٍ بطيئة وكان أقدامي مربوطةً بصخور ثقيلة. تخرج من بوابة المنزل نفس المرأة التي تلتف رقبتها بوشاح أسود لامع. تقف بجوار أبي، تخرج زجاجة بها سائل أحمر من حقيبتها السوداء، تملأ كأساً، تناولها لأبي، يشربها، يعيدها إليها، تبتسم، أقتربُ منهما خطوتين، ينبح الكلب بقوة، تنظر لي المرأة بقسوة، تمطر السماء ماءً، ثم تلجأ، ثم دمًا، تمسك المرأة يد أبي، يتحرك نحو الطريق المؤدي لمدينة الظلام، يتحرك الكلب خطوةً، تنتظر له المرأة بعينين جامدتين، يتوقف الكلب، ينكس رأسه، يتكور على نفسه، يبتلعهما الطريق، يتوقف المطر، تنتشع الغيوم، تنفك عقدة أقدامي، أتحرك بحرية، أتبعهما نحو بوابة مدينة الظلام، أرى البوابة تفتح ثم يعبرها أبي الذي كان سعيداً هذه المرة، كان يصفر في استمتاع، يدندن، يغني، وصلت للبوابة فالتفتت لي صاحبة الوشاح الأسود وقالت:

- ليس الآن يا فارس.

قلت لها متوسلاً:

- أريد أن أتحدث مع أبي، الأمر ضروري للغاية.

نظرت لي بنفس الطريقة التي نظرت بها للكلب، شعرت بخوفٍ شديد، سمعتُ نعيقَ غربان يأتي من أماكن متفرقة، قلتُ لها في يأس:

- المسألة حياة أو موت.

ابتسمت في سخرية ثم قالت:

- كافة مواضيع الدنيا تندرج تحت عنوان من اثنين؛ حياة، أو موت.

ركعتُ على ركبتي، توسلتُ لها بكل الطرق، بكيتُ حتى صنعت دموعي بركةً تحت أقدامي، وصرخت حتى اختفى صوتي وتورمت حنجرتي. شعرتُ بيد توضع على كتفي، التفتُ لأجده جدي حكيم، نهضتُ في نشاط، نظرتُ للمرأة في تفاخرٍ كطفلٍ أشبعه أحد الغرباء ضرباً ثم رأى أباه قادماً من بعيد. قال جدي بهدوء:

- دعينا نعبر البوابة.

نظرت له المرأة في تردّد، قالت له:

- أنت تعرف قوانين مدينة الظلام جيداً.

ابتسم جدي وقال:

- القوانين قد وضعت لكي تتم مخالفتها.

قالت المرأة في ثقة:

- إلا قوانيني يا حكيم.

كانت هذه هي أول مرة أرى فيها أحداً ينادي جدي حكيم باسمه. قال لها جدي في رهبة:

- أعرف ذلك، ولكنه لن يسير في طريقٍ ممنوعٍ عليه السير فيه.

اقتربت المرأة من وجه جدي ثم قالت بصوتٍ هامس:

- لا يوجد طريق ممنوع السير فيه، هناك طريق لم يحن موعد دخوله بعد.

ابتعدت عن وجه جدي، أشارت لحارس البوابة الضخم بإصبعها ففتح البوابة على الفور. كانت يدي ترتعش وأنا أسير بجوار جدي، اقتربت منه حتى لامستُ جلبابه الدافئ، وقفنا تحت مصباح مضيء بنور واهن، غطى ظل جدي على ظلي تماماً، رسمتُ ظلالنا لوحةً رجلٍ يقفُ في منتصفِ طريقٍ طويلٍ وحده. قال جدي:

- تريد أن تراها مجدداً أليس كذلك؟

هزرتُ رأسي موافقاً، وضع يده في جيب جلبابه وأخرج قطعة حلوى، تناولتها من يده، وضعتها في فمي ثم أغلقته، بدأتُ تذوب فوق لساني، شعرت بيد جدي ترفع من فوق كتفي، ثم انطفأ المصباح. من بعيد؛ رأيت نقطة مضيئة بنور أخضر، بدت وكأنها نقطة جبرٍ خضراء فوق صفحة سوداء، لا أعرف هل كنت أركض نحوها، أم كانت تركض في اتجاهي. ظلت تتسع وتتسع حتى تحولت لبابٍ أخضر اللون في منتصف حائطٍ مطليٍّ بطلاءٍ أسود قائم. خطوت في اتجاهه وأنا أرتجف من الخوف. وقفت أمامه، بحثت عن مقبض للباب ولم أجد، لمستته بإصبعي، فتح الباب ليكشف عن منظرٍ لم أر مثله من قبل.

بدا وكأن هذا الباب كان يفصل بين عالمنا وعالم آخر. رأيت حديقةً واسعة، سماءً صافية، شمسًا ساطعة، أشجاراً متشابكة الغصون، ووروداً مختلفة الألوان. مشيتُ فوق الحشائش الخضراء، أخذت أتجول ببصري في أنحاء المكان، وتوقفت عيني عندما رأيتها. كانت نفس الشجرة العملاقة التي تزين لوحتها حائط منزلنا. اقتربت منها وأنا أتأملها في إعجابٍ شديد. تذكرت هذا اليوم وكأنه حدث بالأمس، رأيتني جالساً بجوار أمي فوق صخرة الشاطئ، رأيتها تداعب بفرشتها اللوحة البيضاء

حتى طَبَعَتْ فوقها تلك الشجرة، تذكرت وجهها، ابتسامتها، أصابعها الناعمة، جدائل شعرها، ورائحتها. عدت من بحور الذكريات لأجدها تنظر لي بنفس الطريقة، كانت تستند بظهرها إلى الشجرة، وتبتسم في سعادةٍ لأبي الجالس بجوارها. اقتربتُ منهما، اتَّسعت ابتسامتهما، نهضا واقفين ثم اندفعا نحوي واحتضانني بقوة، بكيت، تذكرتُ جدي وهو يقول: «ليس كل البكاء حزناً». كنتُ أبكي من سعادتي، من لهفتي، من شوقي إليهما. سألتها بصوت محشرج:

- لماذا رحلتِ عن منزل الشاطئِ يا أمي؟

قالت وهي تمسح دموعي بأصابعها الرقيقة:

- لكي أرتاح يا صغيري.

لم أستطيع أن أتمالك نفسي، صرختُ في غضبٍ:

- لماذا رحلتم جميعاً إلى مدينة الظلام؟ أنتِ، أبي، أصدقائي، حرية. لماذا تركتموني وحدي هكذا؟

وضعت أمي وجهي بين كفيها ثم قالت:

- لم ندخل المدينة عبر نفس البوابة، ولم نرحل عن الشاطئِ لنفس الأسباب يا فارس.

ابتسمت في رقّةٍ ثم أتبعته:

- أنا وأبوك جاء موعد رحيلنا عن بيت الشاطئِ يا صغيري، ولا يمكننا أن نتأخّر عن موعدنا لحظةً واحدةً. أما أصدقاؤك فقد دخلوا مدينة الظلام عبر بوابة وحدتك، أبعدت نفسك عنهم يا فارس بعدما تعيَّرت اهتماماتك ونظرتك للحياة، ولم تعد علاقتك بهم كما كانت من قبل. ولا غريب في هذا الأمر، نخلق في الدنيا وحدنا، ونرحل منها وحدنا، وملتقي في الطريق الطويل بعشراتٍ من الناس، يؤنس بعضنا بعضاً، ويساعد بعضنا بعضاً، ثم يرحل كل منا ليكمل طريقه. أما عن رحيل حرية عن شاطئك ...

قالت بعد لحظة صمتٍ بلهجةٍ تنمُّ عن الأسف:

- العلاقات معقّدة للغاية يا فارس، يفشل منها أكثر ممّا ينجح، ويخرج منها الناس كما لم يدخلوها. حرية رحلت لمدينة الظلام عبر بوابة الكبرياء، لم تعد قادرةً على تحمّل جفاف معاملتك، وإهمالك لها، أرادت لنفسها حياةً أجمل، وكانت تستحق ذلك.

عادت تبتسم وهي تقول:

- كل إنسانٍ في الدنيا يستحقُّ أن يحيا حياةً سعيدةً.

قلت لها في صوتٍ مكتوم:

- ولكنني تعبتُ من الناس يا أمي، يطفئون بكلماتهم القمر في وجهي، ويدفعونني للهروب من نظراتهم وأحكامهم إلى مدينة الظلام حيث لن يراني أحد ولن يحمّني أحد ما لا طاقة لي به.

انحنت أمي لتلتقط وردةً بيضاء كانت لقاءً فوق الحشائش، أمسكْتُها، مدت يدها بالوردة وهي تقول:

- القمر يا فارس أبيض مثل هذه الوردة، لا يمكن أن يصيب بلون آخر، ولا ينطفئ أبدًا. ولكن؛ أعيننا قد تراه أسود اللون إذا اقتحم الظلام عقولنا.

سألتها في يأس:

- لماذا لا يرسل لي البحر أبدًا ما أريده؟

قال أبي وهو يقترب مني بهدوء:

- ربما لم ترم شباكك في المكان الصحيح يا فارس، أو أنك لم تدرك قيمة الرزق الذي أرسله لك البحر حتى الآن.

قلت لأبي في ندم:

- أنا آسف يا أبي لأنني ...

قاطعني مبتسمًا:

- هل تعرف كم كنتُ مشتاقًا لكلمة أبي من فمك يا صغيري؟

زادتي كلماته ندمًا، هممتُ أن أتكلم ولكنه أتبع قائلاً:

- لا تتأسف يا فارس، لو عرفت مقدار حبي لك ستفهم أن قلبي لا يوجد فيه مكان شاغر للاستياء منك، أو عتابك. لو كنتُ قد أنجبت طفلاً من صلبك لما كنتُ سأحبه مثلما أحببتك، ولو كنت أعرف أن الله سيرزقني بك، لما أضعتُ نصف عمري في الشكوى والتذمُّر من تجاهل البحر وبخله.

دمعت عيناك، جذبني أبي من ذراعي وضمني إليه، كان جسده يرتج من البكاء، شممتُ في دموعه رائحة السعادة، والراحة. وضعتُ أمي يدها فوق رأسي ثم قالت وهي تداعب شعري بأصابعها:

- قلّ من زيارتك لمدينة الظلام يا فارس، وأكثر من الإبحار، ولا تتردد أبدًا في الانطلاق بمركبك في طرقٍ جديدة؛ حتى لو حذرك الجميع منها، وأمطروا أساطيرهم ومخاوفهم فوق رأسك.

رفعتُ رأسي، نظرتُ في عينيها، قلتُ لها في استياء:

- الحياة صعبة للغاية، الفقر يغلفني بغطاءٍ أسود، والناس يقتلونني بكلماتهم السامة.

- لستَ فقيراً يا فارس، أنت فقط لا ترى الكنز الذي تمتلكه لأنك مشغولٌ بالبحث عن كنوزٍ لامعةٍ لم نخلق في الدنيا لكي نجمع الذهب والفضة يا صغيري، لكلِّ منا رسالة خلقه الله ليؤدّيها، من يدرك رسالته تفتح له الحكمة أبوابها، ومن ينشغل بالبحث عن الكنوز؛ تذهب حياته هباءً، ويخلف وراءه سيرةً خالية، وأعمالاً بالية، وصناديقٌ ممتلئة بما لم ولن ينفعه. أكثر شيء تعلمته من الدنيا يا صغيري أن الناس لو لم ينجحوا في الوصول لقمّة الجبل؛ يسعون بكل قوتهم لكي يسقطوا من يحاول أن يصعد. من جعل الناس مرآة يرى فيها قيمته ستهتزّ صورته في عينه. ومن صنع من الإصرار حاجزاً يحميه من كلمات الناس؛ وأفعالهم، سيصل للنجاح لا محالة، وسيحقق أحلامه مهما بدت مستحيلة.

سمعنا صوتَ نعيقٍ صاخب، نظرتُ للسماء، رأيتُ عصفوراً يزقزق في سعادة. قالت أمي:

- الخوف يا فارس غرابٍ أسود لا يراه إلا الخائفون، ولا يسمع صوتَ نعيقه إلا من استسلموا لمخاوفهم وتركوها تتحكم في مصائرهم. مع كل خطوةٍ ستخطوها ستجد أشباح مخاوفك تظهر من كل اتجاه، لا تحاول أن تقتلها، الخوف لا يقتل، ولكن؛ تعلم كيف تقاومها، وتروضها، وتتعايش معها.

قلت لها في استسلام:

-لا يمكنني أن أبتعد عن مدينة الظلام يا أمي، يسكن فيها من عجزت عن تعويضهم بغيرهم من الناس.

- في الحياة؛ هناك أشخاص لا يمكنك تعويضهم، المقاعد التي كانوا يجلسون فوقها لا تناسب غيرهم، ومن الأفضل أن تترك فارغة، وألا تنفض الغبار الذي يغطيها. انشغلنا بالراجلين عن حياتنا يصيب أعيننا بالعمى، يجعلنا عاجزين عن رؤية من يحمل لنا خيراً، ومن يستحق أن نتقرب منه ونفتح له بوابتنا المغلقة.

سكنت أمي قبل أن تقول:

- في مدينة الظلام تتكرّر الأحداث باستمرار، من كان يعاملك بقسوة سيظل على صورته هذه؛ حتى لو كانت رياح التغيير قد أصابته وأصبح إنساناً مختلفاً. ورّقته في أرشيف عقلك مكتوب عليها «شخص سيئ»، وهكذا ستراه دائماً؛ ما دمت تلتقي به في شارعٍ مظلم. إيمانك للسير في شوارع قديمة سيجعلك تضيء بيوتاً مظلمة، وتشعل مصابيح لتتير وجوهاً كان عليك أن تنساها. عندما نسير في شوارع مدينة الظلام لا نرى إلا ما تريد أعيننا أن نراه، نرى وجوهاً ضحكت لنا يوماً وننسى أنها أبكتنا أعماء، نستمع لكلماتٍ أضحكتنا للحظات، ونتجاهل جروح صدورنا التي أصابها

رصاصٌ أطلقتته نفس الأفواه. في مدينة الظلام نضياء بمصاييحنا ما نريد أن نراه، ونتجاهل ما نحاول الهروب منه. يساعدها على ذلك ظلام المدينة، عتمة الوجوه، ونسياننا لتفاصيل أكثر من التي نتذكرها. ولأن الشاطئ دائماً مضاء، نرى العيوب فيه قبل المزايا، نظرات الخوف قبل الابتسامات، الكارهين قبل المحبين، ونظن أن الراحلين عن شواطئنا قد أخذوا معهم سعادتنا، وراحتنا.

- ولكني أخطأت كثيراً، وتركت من كانوا يستحقون أن أتمسك بهم يرحلون.

- هوّن على نفسك يا صغيري، لا تقسّ عليها لمجرد أن من كان يسكن بداخلك قد ارتكب خطأ تعيش أنت نتيجةه الآن.

سألته في دهشة:

- من كان يسكن بداخلي!

- نحن نشبه الأشجار يا فارس، تتعاقب علينا الفصول، نذبل، تتساقط أوراقنا، ثم تنمو أوراق جديدة تحمل أفكاراً لم يكن لها وجود من قبل. نزهة بأحلام وطموحات وإنجازات، ثم يأتي الخريف، تتساقط أوراقنا التي كنا فخورين بلمعتها ونضجها. أنت لست ما كنت عليه منذ عام، ولن تبقى على صورتك هذه كثيراً. مع كل شروق شمس تحدث بداخلك تغييرات لا تراها، ولكنك تقاجأ بأنك تندفع في طرقٍ لم تكن راغباً في السير فيها من قبل. الكل يرتكب أخطاءً يا فارس، هذه هي الحياة، لسنا ملائكة يا صغيري، نحن نبعد كل البعد عن الكمال والمثالية، حتى لو ادّعينا ذلك، ووضعنا فوق وجوهنا عشرات الأقنعة. شعورك بالحزن على فقدانك لإنسانٍ يدل على نضجك. ولكن؛ أن تبني بيوتاً في مدينة الظلام لمن فقدتهم؛ أنت هكذا تسقي أرضك بالندم، والندم يطرح دائماً زرعاً شائكاً بكرهية النفس. قبل أن تسامح الناس سامح نفسك يا فارس. لا تلق سيفك وتترك معركتك الخاصة لتبحث عن جنود رحلوا عنك والتحقوا بمعارك أخرى.

- ولكنكما تسكنان في مدينة الظلام يا أمي.

اقترب أبي وقال مبتسماً:

- نحن لا نسكن مدينة الظلام يا فارس، نحن نسري في دمانك، وتسري في دماننا. وفي كل خطوة تخطوها ستجدنا دائماً هنا، وهنا.

ضغط بإصبعه برفقٍ على قلبي ورأسي، ضحكتُ في سعادة، قالت أمي في حماس:

- والآن؛ عد لحياتك يا فارس، ارجع لمركبك وانطلق نحو قمرك، ومهما حدث؛ لا تتوقف أبداً، اركض يا فارس، اركض يا صغيري.

قبِلْتُ رَأْسَيْهِمَا، أَيْدِيَهُمَا، أَقْدَامَهُمَا، نَهَلْتُ مِنْ رَائِحَتَهُمَا، بَدَأْتُ أُسِيرُ فِي اتِّجَاهِ الْبَابِ الْأَخْضَرِ الَّذِي أَفْضَى بِي إِلَى هَذِهِ الْحَدِيقَةِ. عَبَرْتَهُ ثُمَّ التَّقْتُ، أَلْقَيْتُ نَظْرَةَ عَلَيْهِمَا، كَانَ أَبِي يَبْتَسِمُ، وَأُمِّي كَانَتْ تَلَوِّحُ بِيَدَيْهَا فِي سَعَادَةٍ. أَدْرْتُ لِهَمَا ظَهْرِي ثُمَّ بَدَأْتُ أُسِيرُ بِسُرْعَةٍ، وَبَعْدَ لِحْظَاتٍ؛ بَدَأْتُ أَرْكُضُ، جَرَيْتُ بِأَقْصَى سُرْعَتِي، جَرَيْتُ كَأَنَّ الْخَوْفَ يَطَارِدُنِي، الْحَلْمُ يِرَافِقُنِي، وَالسَّعَادَةُ تَقْرُؤُ مِنِّي، وَعِنْدَمَا أَنْهَكُنِي التَّعَبُ؛ جَرَيْتُ أَكْثَرَ. ثُمَّ رَأَيْتُهُ وَاقِفًا بَجَلْبَابِهِ الْفَضْفَاضِ، وَوَجْهَهُ الْمَضِيءِ. سَأَلْتُهُ:

- من أنت؟

قال جدي حكيم مبتسمًا:

- أنا وعيك يا فارس، وعيك الذي يساعدك على الخروج من جحور الأوهام، وينتشل بقايا روحك التي تركتها تغرق في بحور اليأس.

- ولماذا تركتني أسقط وأغرق إذا كنت قادرًا على إنقاذي؟

- لأن عقلك مزدحم بأصواتٍ تملي عليك أوامرٍ مختلفةً، وأنت من تختار؛ لأي صوت منهم تنصت. بينما كنت تتبع صوت الوهم كنت أنا أصرخ لأحذرك، لكنك تجاهلتني. وبينما أحاول الآن أن أعيدك للطريق الصحيح؛ هناك من يحاولون أن يقنعوك بأن عالم الوهم أجمل، وأنت عن طريق الوهم يمكنك أن تصبح ملكًا دون أن تغادر غرفتك. وبينما نتحدث الآن، هناك أصوات في رأسك تأمرك بأن تتابعهم، وتتجاهلني.

قلت له في ثقة:

- ولكنني لن أستمع لأيٍّ منهم مرةً أخرى.

- بلى، ستسمع لهم كثيرًا، ستخطئ كثيرًا، وفي كل مرة ستضلُّ فيها الطريق سيمتلئ وعاء المعرفة بداخلك، وستدرك أيُّ طريقٍ عليك أن تسلكه، وأيُّ طريقٍ عليك أن تتجنَّبَه. ستستمع لصوتي يومًا، وستجاهلني يومًا آخر، ومهما حدث؛ لن أكفَّ عن محاولة إرشادك أبدًا.

أشار جدي حكيم نحو الشاطئ ثم قال:

- دائمًا اسلك الطرق المضيئة، وابتعد عن الشوارع المظلمة، واركض، واركض هروبًا من ظلامٍ لن تجد فيه ضالتك، واركض نحو ما أعدّه لك القدر، ولا يمكنك أن تهرب منه أبدًا.

في الشارع المؤدي للشاطئ رأيتهم يقفون على جانبي الطريق؛ أصدقائي، حرية، زوجها، وغيرهم من الراحلين عن حياتي. وقفت بينهم ثم قلت لهم في أسف:

- أعرف أنني لم أفعل ما يجعلكم تتمسكون بي، وأنني كنت أنانيًا معكم، ولم أستحق ثقتكم، ومحبتكم. اعتدت أن أراكم في النور لا في الظلام. ورغم اشتياقي لكم، وندمي على ما فعلته؛ أدركت أخيرًا أن البكاء لن يعيدكم، ولن يفيدكم.

وقفت أمام مكتبة الكتب العملاقة، مددتُ يدي نحو أحد الرفوف، سحبت كتابًا أعرفه جيدًا، حملته ثم جلست خلف المكتب. فتحت الكتاب، ظهرتُ وردة بيضاء منكمشة، كانت هي آخر وردة لامست يدَ أمي قبل رحيلها. قرّبتها من أنفي برفق، شممتها، كانت رائحة الورد قد تلاشت، ولكن رائحة أمي لم تنزل منها أبدًا. حملت ورقة مطوية كانت تختبئ تحت الوردة؛ كانت هذه هي آخر ورقة كتبتها أمي قبل رحيلها، فتحت الورقة، وقرأتها بصوتها:

«الماضي مدينة مظلمة يسكن فيها من عشقناهم، وتعلقت بهم قلوبنا، ثم رحلوا عن حياتنا، وبقيت أوراق ذكراهم في غرفةٍ لا يدخلها الضوء، ومن أجل استعادة لحظات ضحكنا فيها من قلوبنا، حملنا مصابيح ضوءها واهن، ومشينا في شوارع لونها داكن، وأخذنا نبحث عن وجوه يقتلنا الشوق لها. الماضي مدينة رغم ظلامها؛ نزورها، ورغم الحزن الذي نعود به منها، نعود دائمًا إليها.

المستقبل قمرٌ لا يبقى على حاله أبدًا. نراه يومًا مظلمًا، ويراه غيرنا مضيئًا، يصفونه لنا، ولا نصدق ما لم تره أعيننا. ثم نراه يومًا مضيئًا، ويراه غيرنا مظلمًا، يحدثوننا عن ظلمته، نصدقهم، ونكذب أعيننا. المستقبل قمرٌ يقترب منّا لو تسمرنا في أماكننا، ويطاردنا لو هرعنا وتقهرنا، ويحتضننا لو رأنا نسير في اتجاهه. المستقبل قمرٌ ليس معلقًا في السماء، ولا ملتصقًا بالأرض، ولكنه يسكن في أعيننا، ولكل منا قمره الخاص.

اليوم شاطئٌ يجلس الناس فوق رماله، يستمتع بعضهم بالمياه وهي تداعب أقدامهم، ويشكو آخرون من ابتلال أقدامهم بالمياه. يتمني كثيرون لو تعود أقدامهم لتداعبها الرمال ولو للحظات يصحّحون فيها ما فعلته أيديهم. ويلقي كثيرون بأحجار الأيام في البحر حجرًا تلو الآخر، ولا يدركون أن الأحجار – حتى لو بدت كثيرة – هي محدودة للغاية.

الرزق بحرٌ واسعٌ، والسعي شباكٌ تلتقط ما كتب للركاب أن يرزقوا به. الباحثون عن رزق غيرهم لا يرضوا أبدًا، والراضون بما رزقوا به يكافئهم البحر بما يرضيهم. الرزق بحرٌ واسعٌ ليس لإنسانٍ عليه سلطة، ولا يحتاج لوساطة، ويحترم من يدرك أن أعلى الكنوز لا تلمع من بعيد.

الخوف غرابٌ أسودٌ يحلق فوق رؤوسنا طوال الوقت، غرابٌ إذا رأى إنسانًا مستسلمًا له، يكثر من النعيق، والتحليق فوق رأسه. وإذا تحدّاه إنسان، يدرك مدى ضعفه، ويبحث عن غيره ليخيفه.

الوهمُ عشبةٌ سامةٌ لها بريقٌ لامع، تجذبك بعينيها المضيئتين، تخدرك بنظراتها، ولا تدرك أنك تسير نحو فخٍّ متقنٍ إلا بعدما تسقط فيه. تفتح أمامك بوابات الخيال، تجد أحلامك قد تحققت، وهمومك قد تلاشت. الوهمُ عشبةٌ سامةٌ تجعلك تضع نفسك في سجنٍ بنيتَه بيديك، تتجرع رحيقها المرّ، ولا تدرك أنك أصبحت عبدًا لها.

الحياة هي أبسط منظومة معقدة، هي بنتٌ جميلة تتجذب إليها يومًا، وتتهرب منها يومًا آخر. الحياة مزيج بين الشيء ونقيضه. الخير والشر. الخوف والجرأة. اليأس والتفاؤل. الرغبة والرغبة. الحياة كتابٌ يحتضن كلمات كتبناها بحبرٍ أسود حزين، وأبياتٍ شعرٍ رسمناها في أيامٍ عشقنا فيها الحياة»

طويتُ الورقة، أعدتها إلى الكتابِ بصحبة الوردِ البيضاء، فتحتُ درج المكتب المنتفخ بالأوراق، أخرجتُ منه كل ورقة لامستها فرشاة أمي، كل ورقة داعبتها أصابع أبي، وكل ورقة شربتُ من حكمة جدِّي. وضعت الأوراق في حقيبتِي السوداء، ووضعت فوقها أوراقًا بيضاء لم يخطِ قلمٌ فوقها من قبل.

أغلقتُ حقيبتِي وخرجتُ إلى صالة المنزل، وقفتُ أمام لوحة الشجرة التي رسمتها أمي، دمعتُ عيناوي وأنا أتذكر ابتسامتها، خلعتها من فوق الحائط ثم حملتها مع حقيبتِي وغادرتُ المنزل. أمام البوابة كان الكلب الأسود راقداً، فككتُ الحبل من حول رقبتِه، ركض في سعادةٍ وحرية ثم عاد بعد لحظات ليتمسح في أقدامي. مضيتُ نحو مركبي، ومضى الكلب ورائي.

فوق صخرتي المفضلة رأيتها جالسةً، اقتربتُ منها، وقفتُ أمامها، كانت ترتدي فستانها الأبيض، تضع خلف أذنها وردةً بيضاء، وتبتسم في سعادة. سألتها:

- ما اسمك؟

قالت في خجل:

- «حياة».

مددتُ لها يدي، أمسكتها، جذبتها برفقٍ، سرنا جنبًا إلى جنبٍ، سعدنا إلى المركب وصعد الكلب وراعنا. دفعت المجاديف بقوة فانطلق المركب نحو القمر الذي كان مضيئًا، مكتملاً، وسعيداً. أخرجتُ من حقيبتِي أوراقًا بيضاء كانت ملكًا لأبي، ريشة أمي، ودواة حبر جدي حكيم. نظرتُ خلفي، رأيتُ أمي وأبي يجلسان فوق المركب، يستندان بظهرهما إلى حافته، ويبتسمان لي في سعادة. أمسكتُ الريشة، دسستها في دواة الحبر، رفعتها إلى الورقة ثم بدأت أكتب:

«تلقي شباكك في البحر، وتنتظر. يتوقف جسدك عن الحركة، ولا يتوقف عقلك عن التفكير. تتوقع أن تلتقط الشباك كنزًا، تحلم، تتخيل، تتفاعل، وتبتهج. وتعود شباكك بزجاجة بها أوراق صفراء ظلت حبيسة داخلها لأيام، وربما لأعوام. كافحتُ أمواجًا، وصارعت رياحًا، وهربت من أفواه حيتان هائلة؛ حتى وصلت إليك. تنظر للزجاجة باشمئزاز، تدرك أنك قد خلقت أمالًا زائفةً، وأن اللوحات التي رسمها خيالك ليس لها وجود في واقعٍ لم يتقن فنَّ الرسم أبدًا. تدسُّ أصابعك في فوهة الزجاجة، تخرج الأوراق، تسألها:

- لماذا - دونًا عن سكان العالم - علقَتِ شباكي أنا؟

تجيبك الأوراق:

- لأن القدر قد كتب لك أن تقرأني قبل أن يتعلم من كتبتي كيف يكتب.»

-النهاية -



كيان للنشر والتوزيع

أفضل دار نشر مصرية ٢٠٢١

للتواصل معنا :

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زوروا موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 / 01001872290

وللاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا
وأنشطة كتابنا الثقافية، يمكنكم متابعتنا على حسابات
التواصل الاجتماعي التالية:



KayanPublishing

